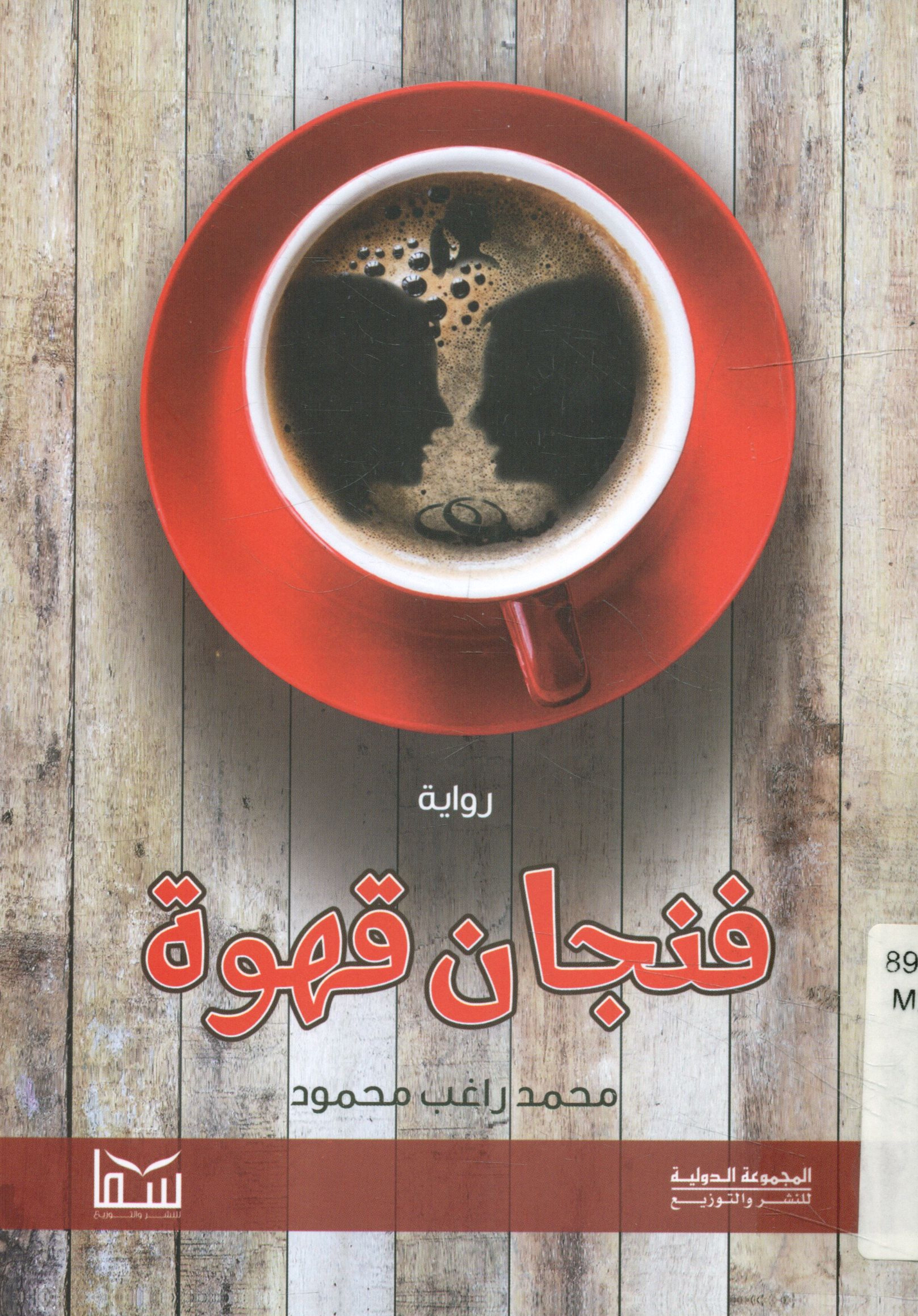
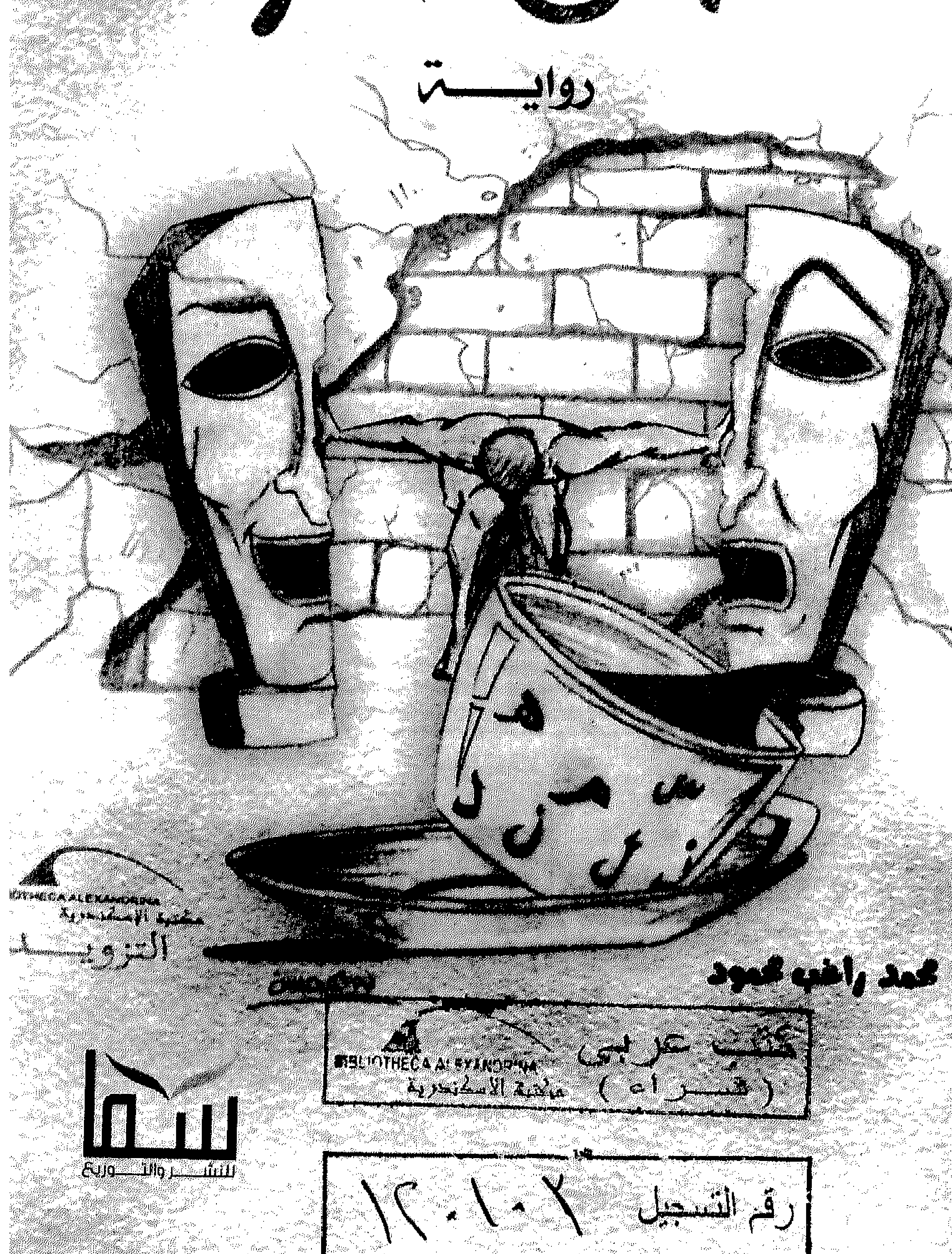

رواية
فنجان قهوة
محمد راغب محمود
المجموعة الدولية
للنشر والتوزيع
سما
للنشر والتوزيع
89
M

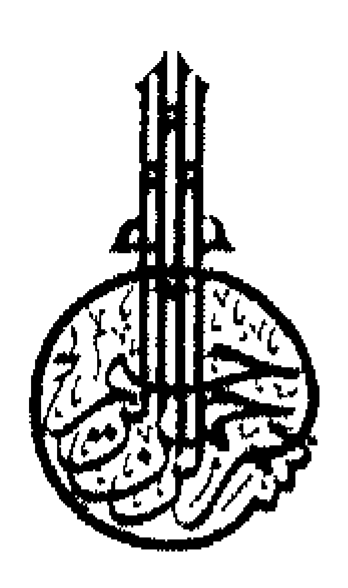
فنجان قهوة

رواية



محمد راغب محمود

سما
للنشر والتوزيع



العنـــوان: فنجان قهوة

المـؤلـف: محمد راغب محمود

إشراف عام: نجـلاء قاســم

الناشــر



15 ش يوسف الجندي ميدان باب اللوق
أمام مول البستان وسط البلد
تليفون: 24517300 - 01271919100
emil: samanasher@yahoo.com

التوزيـع
المجموعة الدولية
للنشـر والتـوزيـع

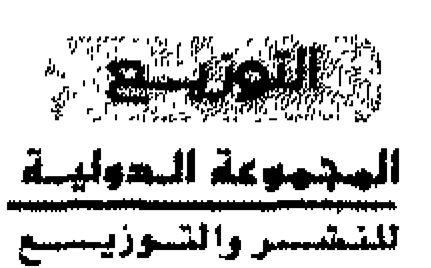
80 ش طومان باي - الزيتون - القاهرة
تليفون: 24518068 - 01099998240
emil: aldawleah_group1@yahoo.com

تصميم الغلاف



إخراج داخلي: معتز حسنين

الترقيم الدولي: 978-977-6451-87-2
رقم الإيداع: 2014 / 20301
الطبعة الأولى: يناير 2015




فنجان قهوة

الإهـــــداء

أهدي هذا العمل إلى من صنعت مني رجلًا .....

أهديه إلى من علمتني تقوى الله .... إلى من تدعو لي كل يوم بأن يملأ الله قلب الناس بحبي ....

إلى السيدة الفاضلة .... أمي.

أهديه إلى من أود أن أكون الولد الصالح الذى يدعو له .... أبي .... داعيًا الله أن يتغمده برحمته.

أهديه إلى كل أسرتي وأصدقائي .... أهديه إلى من يحبوني لوجه الله.

وأخـــيـــرًا .... لـتـكـون حـسـن الخـتـام ....

أهديه .... إليكى .... أنتي فقط ...

أدام الله محبتنا في قلوبكم

محمد راغب محمود



■■■

نزل من باب سيارته الفارهة، وقد سبقته رائحة ذلك العطر الذي تعوَّد أن يتعطر به دائمًا مرتديًا تلك البدلة كُحلية اللون، واضعًا نظارته الشمسية باسطًا قامته؛ كملك متوَّج يمتطي صهوة جواده بعد أن عاد من نصر عظيم.

لم يكن أحد حوله، لكنه كان يسير تمامًا مثلما تسير النجوم على البساط الأحمر في حفل الأوسكار؛ «كان يعلم أنه نجم».

خطوات بسيطة تفصله عن باب المستشفى الذي يعمل به؛ ذلك المستشفى الأشهر في مصر، والذي يعالج الأمراض النفسية، ويرتاده نجوم المجتمع والأثرياء منهم، وسرا يرتاده العديد من الساسة.. ويتولى هو شخصيًا رغم صغر سنه إذ أتمَّ عامه الخامس والثلاثين منذ أيام معدودة علاج تلك الفئة من مرتادي ذلك المستشفى الشهير.



لا يدري لماذا خلال تلك الخطوات البسيطة التي تفصله عن باب المستشفى تذكر طفولته، وكيف نشأ في إحدى الحواري المصرية بذلك الحي الشعبي الشهير.

تذكر كيف كان يقاتل ليفرض سيطرته على أقرانه؛ حيث كان مبدأ الحارة هو البقاء للأقوى!

وانتفض فجأة، وصحا من تلك الذكرى على صوت ينادي مُحيِيًا:

كيف حالك دكتور منير؟

فتذكر وانتبه إلى أنه لم يعد ذلك الطفل الشرس المقاتل، بل إنه الآن الدكتور منير راشد استشاري الأمراض النفسية والعصبية؛ فالتفت إلى صاحب الصوت فإذا بها «نادية»؛ تلك الممرضة اللعوب التي دائمًا ما تحاول أن تلفت نظره إليها من دون جدوى، على الرغم من أنها فاتنة الجمال.

ولكنه أغلق ذلك الباب تمامًا، معلنًا أن قلبه لم يعد سوى تلك العضلة التي تضخ إلى أعضائه ماء الحياة.. أما القلب الذي يحب ويهوى ويعشق فقد مات..

فرد التحية قائلًا: الحمد لله، في أفضل حال.

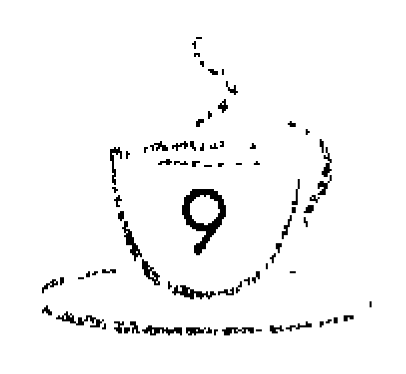
وأشاح بوجهه وانصرف فاتحًا باب المستشفى الزجاجي الذي يعكس صورته كي لا يرى من بالخارج من بالداخل، وكأن ذلك الباب لم يكن مجرد باب بشكله ومعناه الحقيقيين بل كان بوابة إلى عالم من الضروري جدًّا فعلًا ألا يعلم من بالخارج ما يحدث بالداخل!

■ ■ ■

اتجه إلى مكتبه مسرعًا دون أن يُلقي التحية على الجميع كعادته كل صباح، حتى من رآه هذا اليوم وهو يتجه مسرعًا علم أن هناك شيئًا غير طبيعي يجري بداخله.

دخل مكتبه وجلس على كرسيه وهو يتصبب عرقًا، رغم أن مكيف الهواء يعمل بأقصى درجاته، ولكن روحه الملتهبة أثرت على جسده الفاني الضعيف.

وبحكم عمله، كان يعلم أن الجسد مجرد وعاء لا قيمة له أمام قوة وعنفوان الروح الجامحة التي تكمن بداخله..



وأمام ارتفاع ضربات قلبه لم يجد أمامه مفرًّا سوى أن يُحضِر جهـاز قياس ضغط الدم؛ فهو مصـاب بداء ارتفاع الضغط ولم يتناول دواءه هذا الصباح ليس نسيانًا وإنما عنادٌ مع نفسه!

نعم..

كان يعاند نفسه وكأنها خصم عنيف!

وعلى الرغم من حبه الشديد لنفسه فإنه كان دائمًا ما يجلدها ويعاقبها؛ إنه شخص المتناقضات..

ووجـد ما قد تخيل أن ضغط دمه قارب عنان السـماء، ومع ذلـك لـم يلتفت إلـى القيـاس ونحَّى الجهـاز جانبًـا، وبدأ في تصفُّح وقراءة الجريدة اليومية؛ فقد كان أمامه عشـر دقائق قبل أن يستقبل أول حالة لليوم.



ومـع أول صفحـة اصطـدم بتاريـخ اليـوم؛ الخامـس مـن نوفمبـر.. وازدادت ضربـات قلبه خفقًا.. فقـد كان يعلم اليوم لكنه كان يهرب من أن يتذكر أن اليوم هو اليوم؛ اليوم الذي فقد فيه قلبه.. الخامس من نوفمبر.

فألقى الجريدة كأنها أفعى أو جن قد مسَّه.

وزاغت عيناه، وتذكر آخر جملة سمعها من الأنثى الوحيدة التـي أحبهـا «رصاصـة الرحمة».. هـي الجملة الوحيـدة التي طلبتها منه قبل أن يغادر جنتها ويهبط إلى أرض البشر الزائلة:

قل لي إنك تحبني.. قلها وغادِر إن شئت.

فنظر إليها وقـال تلك الجملة الذكورية المعهودة دراميًّا في تلك المواقف:

اسألي قلبك..

فأجابته بأنين الهرة المجروحة التي فقدت فلذات أكبادها:

أي قلب أسـأل؟ فلم يعد لديَّ مـا تتحدث عنه.. لقد مزقته، حتـى أصبح كقريـة ضربها إعصار عنيـف؛ كجزيرة بلا زرع أو ماء؛ صحراء جرداء؛



ربيع بلا نسيم؛ خريف بلا أوراق شجر تتساقط.

قل لي أنت بالله عليك: أما زلت تحبني؟

أجابها بقسوة بالغة: لا.

حتى رصاصة الرحمة رفض أن يطلقها..

لـم يتحرك ذلك الحجر الأسـود القاسـي الذي يسـكن بين ضلوع شيطانية، والمسمَّى قلبه..

لم يُحرك سـاكنًا أمام دمـع عينيها الممـزوج بالكحل الذي يفضله..

بل إنه تركها وذهب..

ترك وراءه بقايا بشر.. بقايا ملاك أحب.. ويل لمن يحب!





انتفض على صوت باب مكتبه وهو يُفتح وتدلف منه نادية قائلة: عذرًا دكتور منير، فأنا أقرع الباب منذ دقائق ولم أجد إجابة منك فخفت أن يكون قد أصابك مكروه..

فلم يُجِب!

فاستكملت حديثها: ما لك اليوم دكتور منير؟ لا تبدو بخير.

فرفع نظره إليها قائلًا: ماذا تريدين يا نادية؟ أنا بخير والحمد لله.. اذهبي وأخبريهم بأن يُحضروا لي فنجان القهوة، وعندما تأتي الحالة أدخليها على الفور.

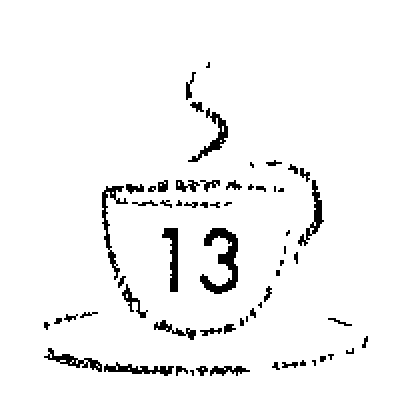
وأزاح بصره بعيدًا؛ كي تفهم أن عليها الانصراف الآن، وقد كان وانصرفت.

فأخذ نفسًا عميقًا، ثم صرخ: أنا غبي.. أنا غبي.

ووضع وجه بين كفيه، واعتصر شفتيْه بين أسنانه متألمًا أشد الألم؛

إنه الآن يعلم ما كانت تشعر به عندما رفض أن يطلق رصاصة الرحمة.

■■■



في تلك الأثناء دخل عليه «أحمد» عامل البوفيه حاملًا القهوة مُلقيًا عليه السلام..

فبادله منير السلام، وسأله عن حال أولاده وأسرته فأجابه «أحمد» بأن كل شيء في فضل من الله.

كان منير يعلم جيدًا أن الأحوال لدى أحمد لم تكن على ما يرام، لكنه كان يجد به قناعة وإيمانًا بالله كان يُحسد عليهما.

فقال أحمد: أين فنجان القهوة يا دكتور منير؟

فأخرج دكتور منير من خزانته فنجان قهوة غريب الشكل، كان مصنوعًا من رخام أبيض عاجي ومحفورًا عليه حروف غريبة، وحروف عربية مفهومة، مثل: س م ع، وبعض الأرقام.

كان كل من يعرف الدكتور منير كان يعرف كم هو يحافظ على هذا الفنجان، حتى إنه يضعه في خزانه خاصة، ويتحرك به في كل مكان ولا كان يتركه لأي أحد أبدًا حتى ولو سينظفه، بل هو من يقوم بتنظيفه والاعتناء به.

إنه سر من أسرار دكتور منير، والتي يعلم الناس أنه مليء بها، لكنهم لا يرون منه سوى حُسن المعاملة وحسن المظهر



وطِيب الرائحة؛ لذا لم يلتفتوا كثيرًا إلى تلك الأسرار في زمن أصبحت فيه مثل تلك ردود الأفعال من المعجزات؛ فنحن في زمن صار فيه الشغل الشاغل لكل البشر أن يفتشوا داخل نفوس بعضهم البعض.

أعطوا لأنفسهم الحق في أن يطلعوا على أسرار البعض، ولم يكتفوا بدور المُشاهد فحسب، ولكن في بعض الأوقات يلعبون دور القاضي والجلاد؛ إنها الغوغائية في أشد صورها.. كلٌّ منهم أصبح يفتش في نفس أخيه حتى يجد أسوأ ما فيه فيتحدث عنه، وإذا وجد الأحسن غار وحقد عليه؛ إنه زمن «سوء الطبع».

■■■

ثم أعطاه «أحمد» فنجان القهوة الذي أخذه بدوره الدكتور منير ليسكبه بهدوء في فنجانه المقدس.. ومع تدفق القهوة داخل فنجانه تذكر أول مرة تعرَّف فيها إلى المرأة الوحيدة التي أحبها من كل قلبه؛ حيث كان لا يزال في أول أيامه في هذا المستشفى، وجدها تجلس وحيدة في زاوية داخل حديقة



المستشفى.. وعندما رآها، من فرط جمالها لم يصدق ما رأى؛ وكأن الحديقة هي التي تجلس بها لا هي من تجلس بالحديقة!

كانـت تناطـح بنقاء بشـرتها نقـاء الثلج الأبيض، وشـعرها كشلال ينحدر من نهاية نهر شديد العذوبة قوي الانحدار..

كانت كنور يسطع.. لا بل شمس تشرق ولا تغيب..

خاف أن يقترب منها..

كان يظـن أن من يقتـرب يحترق.. أن من يقتـرب يزول من هـذا العالم الفاني إلى عالـم الحب.. عالم الوجـود الأبدي.. ومـا أدراكـم ما معنى أن ينبهـر الدكتور منير راشـد بامرأة؛ فهو صاحب سـجل حافـل بالانتصـارات على بنات حـواء؛ حيث كان يُلقب وسط أقرانه وزملائه بقاهر النساء!

كانت له قصيده تقول - فلقد كان يجيد كتابة الشعر-

«أيتها المغرورة التي ترتدي ثوب الكبرياء

افرحي وامرحي وقلوب الرجال اجرحي

أسهريهم حتى المساء

وارتدي ما شئتِ.. فغدًا سترتدين ما أشاء

فأنا قاهر النساء».

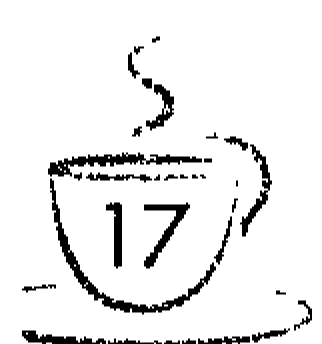
وأخيرًا، استجمع شجاعة الفارس الأول الذي بداخله وانطلق إليها وهو على يقين بأنه ذاهب إلى المجهول..

إنها قد تكون خطوات بسيطة لبشري مثله.. خطوات لا تقارن بما خطاه طوال حياته لكنها قد تغير عالمه إلى الأبد.

عندما اقترب تأكد أن ما كان يراه من على بُعد من مواصفات جمالها ليس إلا كمثل العُشر الذي يظهر من الجبل فوق سطح الأرض، وأن التسعة أعشار الباقية من جمالها قد أفقدته القدرة على النطق تمامًا.

اكتفى بأن ينظر إليها بذهول، وأخذ يُتمتم ويُهمهم بكلمات غير مفهومة وكأنه شخص قد صعقه برق من السماء، أو أخرس قد بدأ لتوّه أولى كلماته في هذه الحياة.. فنظرت مباشرة إلى عينيه وكأن لسان حالها يقول: ماذا تريد؟

وفي هذه اللحظة كأن رحمةً ولطفًا من الله عز وجل قد ألمَّت به، وكأن عينيها تلقي السكينة والهدوء في وجوه من تنظر إليهم.. لا يعلم ولا يدري كم استمر هذا المشهد وكأن الساعة قد توقفت.. وكأن العالم قد اختلف؛ لم يصبح ذلك



العالم المادي الملموس بل أصبح جزءًا من حلم لا يريد أن يستيقظ منه أبدًا.. لقد تسمَّر مكانه، بمعنى الكلمة، وكأن رأس «ميدوسا» قد نظر إليه فحوَّله إلى تمثال لا ينطق ولا يقوى على الكلام.. «ولمن لا يعرف (ميدوسا) فهي أسطورة تشير إلى رأس امرأة إذا نظر إلى أحدهم حوله إلى تمثال!».

كانت تحمل بين يديها فنجان قهوة عاجي له شكل مختلف عن الشكل التقليدي لفنجان القهوة، فخاطبها قائلًا: ....

■■■

دكتور منير، أتريد شيئًا آخر؟

نطق أحمد بتلك الكلمات التي انتزعت دكتور منير من ذكرياته، كما يُنتزع الصوف من الشوك..

لقد مزقه تمزيقًا.. فنظر إليه بعين شاردة وقال له: ماذا تقول؟

قال أحمد: كنت أقول.. أتريد شيئًا آخر يا دكتور منير؟

فردَّ دكتور منير قائلًا: كلا.. لا أريد شيئًا آخر.. أشكرك يا أحمد.



وانصرف أحمد تاركًا دكتور منير مع فنجانه العجيب وذكرياته التي تملكته في تلك اللحظة تمامًا، لدرجة أنه أخذ يبحث عن متنفَّس يريد هواءً بأي شكل وكأنه غرق في ذكرياته غرقًا.. وما أدراكم ما غرق الذكريات! إنه الغرق الذي يغتال الروح اغتيالًا بطيئًا مؤلمًا.

وهنا قام مسرعًا وفتح نافذة مكتبه؛ ليستنشق الهواء النقي وتساءل بينه وبين نفسه:

أمن يموت غريق ذكرياته يموت شهيدًا؟!

ثم ابتسم وأردف قائلًا:

«شهيد الذكريات».

يا له من اسم جيد لكتاب رائع! وضحك.

كم هو غريب دكتور منير! في أشد لحظات حزنه وغرقه المؤلم في ذكرياته يضحك..

حقًّا إنه شخص المتناقضات..

ثم أغلق نافذته ومعها أغلق نفق تلك الذكريات.. إنه يعلم أنه إغلاق مؤقت؛ فهو يحاول منذ سنين أن يغلق هذا النفق



ويفشل، ومع الفشل المتكرر يشعر بالسعادة؛ فهو لا يريد أن ينسى.

فإن لذة الحب الذي شعر بها لا تُنسى.. فمن ذاق عرف، ومن أحب تاب عن لذة الدنيا وتلذذ فقط بمن يحب.. حقًّا «من ذاق عرف».

في تلك الأثناء، سمع صوت طرقات خفيفة على الباب فقال: تفضل.

فإذا بنادية تدخل عليه حاملةً ملف الحالة التي سوف يتابعها الآن.. فنظرت إليه بنظرات لا يفهمها إلا رجل مثله؛ نظرات تحاول أن تستغل ضعفه في هذه اللحظات؛ نظرات كسهام تحاول أن تخترق درعًا مُصمتًا، ولكن هيهات هيهات.. إن دكتور منير دائمًا ما كان الطرف الأقوى في أي علاقة كان النجم؛ كان الأيقونة التي لا تجدي معها مثل تلك النظرات نفعًا فارتفع صوته مُناديًا: نادية، أأتت الحالة؟

قالت نادية بصوت مرتبك: نعم، لقد أتت.



قال الدكتور منير: أدخليها من فضلك بعد دقيقة واحدة اطّلع خلالها على الملف الخاص بها قبل أن أعقد الجلسة معها.

فوضعت نادية الملف بين يدي الدكتور منير ولسان حالها يقول:

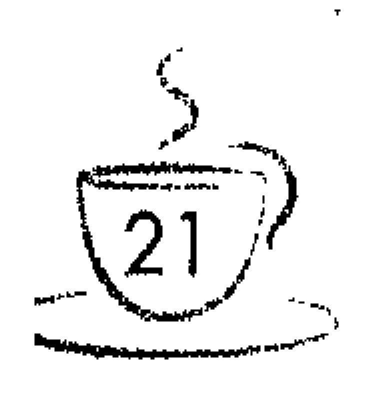
يا ليتني أنا موضع هذا الملف!

فعلى الرغم من أن نادية تبدو كامرأة لعوب فإن علينا الاعتراف بأن الدكتور منير كان رجلًا يستحق أن تحاول وتحارب من أجله.. وانصرفت مغلقة الباب وراءها.

فتنفّس الدكتور منير الصُّعداء؛ فقد كاد في تلك اللحظات التي يحتاج فيها من يحتويه أن يضعف ويرتمي بنظراته في أحضان تلك النظرات الجامحة التي كانت تنظر بها إليه.

الحمد لله..

رددها بصوت عالٍ الدكتور منير، وكأنه يتخلص مما أصاب روحه من نظرات نادية إليه.



وأخـذ يفتـح أولـى صفحـات ملف هـذه الحالـة، وأول ما استوقفه كان توصيـة مكتوبة على الملف مـن الخارج تحمل توقيـع الدكتور «أنـدرو وهبي» مدير المستشـفى، وقد حملت رسـالة إليـه تقـول: «دكتور منيـر، هـذه الحالة إن فتحـت فيها الباب الخطأ فقد فتحت على نفسك بابًا من أبواب الجحيم».

فابتسـم الدكتور منير؛ فهو يعلم أن الدكتور أندرو يحب أن يداعبه، فهو ليس مدير المستشفى فحسب، بل إنه أبوه وأستاذه ومُعلمه الذي يدين له بالكثير على الصعيد الشخصي والعلمي والعملي.

ومع أولى الصفحات، والتي كانت تحوي اسم الحالة:

«إحسـان عبدالخالق».. ومن خلال قراءته السريعة للملف وجدهـا امـرأة في أواخـر الثلاثينـات، تعمل بوظيفـة حكومية مرموقـة، متزوجة ولديها ولدان.. ومن خلال صورتها وجدها تحمل قـدرًا كبيرًا جدًّا من الجمال، وتوحي أناقة الملبس التي لا تخفى على عين خبيرة كعيني الدكتور منير بمستوى معيشي عالٍ، خصوصًا أن عنوان سـكنها المكتوب في الملف موجود



بأحد الأحياء الراقية التي لا يسكنها إلا الطبقة الغنية والمترفة في هذا البلد.

كان ما قرأه الدكتور منير كفيلًا ليكون مستعدًّا لأن يبدأ الجلسة مع السيدة «إحسان»، وضغط على جرس الاستدعاء وبالفعل أتت إليه نادية مُقدمة السيدة «إحسان» إليه، وألقت عليه السيدة إحسان التحية وجلست على الكرسي المقابل لمكتبه، كانت ترتدي رداءً أسود ولم تخلع نظارتها الشمسية عن عينيها، وينسدل شعرها على كتفيها كأميرة أتت من العصور الوسطى.. إنه الدكتور منير الذي دائمًا ما يقدِّر الجمال، لكنه أيضًا لم يكن ينسى قطُّ شرف المهنة.

فبادرها الدكتور منير بالسؤال قائلًا: كيف حالك؟

أجابت بهدوء: بخير.. الحمد لله.

إنه الآن يحاول أن يقوم بإذابة الثلج بينهما؛ كي تشعر بالألفة والمودة وتستريح في الحديث معه وإليه؛ وهو ما يساعده في أن يعرف ما يريد، ويسهل عليه الأمر في علاجها.

■ ■ ■



في كثير من الأوقات اعتقد أن وظيفة الدكتور النفسـي تشبه مـن يبحث في باطـن الأرض عن المعـادن، والأشـياء الثمينة والنفيسـة.. فمن سطح الأرض تظهر قشرتها بمظهرها القاسي الجـاف، ولكـن الباحث هو وحده من يعـرف الحقيقة؛ حقيقة الكنوز التي تكمن بالداخل.

لـذا كان عليه أن يبذل جهدًا مُضنيًا؛ كي يسـتطيع أن يخترق تلك القشـرة الصُّلبة.. فعلى الرغم من أن الحالة هي التي تأتي إلى الطبيب النفسـي بمحض إرادتها طالبةً منه المسـاعدة ومد يـد العـون، فإنه في وقت الجد دائمًا ما تحاول النفس البشـرية الهـرب أو التخفـي.. وفي بعض الأوقـات المقاومة والحرب بضـراوة شـديدة؛ لذا فعلى الطبيب النفسـي أن يكون مسـتعدًّا لمثل تلك ردة الفعل.

ردة فعل النفس القابعة والكامنة وراء تلك المظاهر البريئة، فإنه في كثير من الأحيان تكمن خلف البراءة وحوش كاسرة لا تعرف سـوى التدمير والهلاك؛ لذلك فإن مهنة الطبيب النفسي هي مهنة البحث عن المتاعب؛ هي مهنة ترويض الوحوش.

■■■



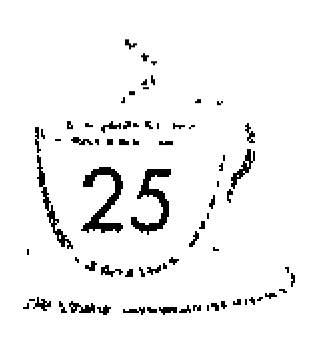
استطرد الدكتور منير حديثه مع السيدة إحسان بصوت مرتفع يحمل نبرة من الارتياح والسعادة؛ كي يُشعرها أنها تتحدث مع صديق قائلًا: وما أخبار الطقس في الخارج؟

فردت عليه ردًّا صادمًا: دكتور بالله عليك، كفى محاولة أن تقوم بكسر الثلج بيننا وادخل مباشرة في صُلب الموضوع.

ماذا تريد مني أن أفعل أو أن أقول حتى تستخرج مني ما تحتاجه؛ كي تجد الطريقة المُثلى لعلاجي.. فأنا حقًّا قد مللت من الحالة التي أنا بها منذ سنوات.

رغم مفاجأة الرد فإن الدكتور منير كان مستعدًّا دائمًا؛ لذا لم يبدُ عليه انزعاج من ردها الصادم، لكنه أجاب مبتسمًا: سيدة إحسان، لا يوجد ثلج حتى نذيبه أو نكسره، ولكن يوجد أنا وأنتِ فقط نتحاور معًا، لا لأنني طبيبك ولكن اعتبريني زميلًا أو صديقًا.

أمَّا من ناحية ماذا أريد منك أن تقولي لي فأنا لا أريد منكِ شيئًا محددًا كي تقوليه، ولكن كل ما أريده هو أن أسمع منكِ أنتِ عما تريدين أن تخبريني به.



فــي هذه اللحظــة، أزاحت عن عينيها تلك النظارة الســوداء ونظرت إليه.

ويا ليتها ما أزاحتها.. ويا ليتها ما نظرت إليه.. إنه نفس لون عيــن من كان يحب، من كان يعشــق؛ ذلك اللون الذي يختلف مع اختلاف انعكاس الشــمس أو الضــوء عليه؛ كلون عين هِرة تتمتع بجمال رباني لا مثيل له..

فأصابــه نفس الذهول الذي أصابــه عندما رأى حبيبته لأول مــرة فــي حديقة المستشــفى، وتذكــر عندما اقتــرب منها وهي تحمــل فنجــان القهــوة غريــب الشــكل، وكيــف أنه اســتجمع شجاعته وخاطبها قائلًا:

السلام عليكم سيدتي الفاضلة، أنا الدكتور منير راشد..

أعمل في هذا المستشفى.. ولقد كنت أمرُّ بالجوار، ورأيتك تجلســين وحــدكِ.. فاعتقد أنــكِ ربما قد تريدين المســاعدة.. كان وجه الدكتور منير وكذبه مفضوحًا يســتطيع أن يميزه طفل صغير لا يزال في مقتبل العمر..

فقاطعته بإشــارة من يدها تحــوي معنى أن يكف عن الكلام فارتبك وقال: آســف سيدتي، أنا أعلم أنني قد أكون قد قطعت



خلوتك ولكنني... وأخذ يُهمهم محرجًا لا يجد ما يقوله، وكذلك هي أشاحت عنه بعيدًا ببصرها فلم يجد أمامه مفرًّا سوى أن ينصرف حتى يحفظ ما تبقى من ماء وجه.. هذا إن كان لا يزال هناك ماء وجه كي يحفظه.

حتى إنه من فرط تسرُّعه في أن يرحل ارتطم بكرسي في منتصف الحديقة فطُرح أرضًا، لكنه قام مسرعًا منفضًا عن ثوبه الأبيض الخاص بأطباء المستشفى التراب والطين، كان ينظر وراءه ليرى إن كانت قد شاهدته في هذا الموقف المُحرج أم لا.. وأصبح لا يدري ما الذي تلطخ بالتراب والطين.. أهو رداؤه الأبيض أم كرامته وكبرياؤه؟ إلا أنه وجد أنها لم تلتفت إليه على الإطلاق وهو ما قد أثار حفيظته فاتخذ قرارًا بينه وبين نفسه أنَّ عليه أنْ يعرف كافة التفاصيل عن تلك السيدة التي أسماها بينه وبين نفسه «سيدة القصر»؛ حيث إنها كانت تمتلك مظهرًا لا بد وأن يكون لملكة متوجة فوق عرش من ماء ينافس عرش بلقيس أو كاميرة كامليوت في ذلك الفيلم الأجنبي الشهير «الفارس الأول»، وعندما يدخل شخص مثل الدكتور منير في تحدٍّ؛ فهذا معناه أن عقله قد انشغل، وأن قلبه قد اشتعل..



فتوجه مسرعًا إلى بهو المستشفى، ودخل إلى عامل الاستقبال هناك، ونادى عليه قائلًا: سمير، من فضلك.

فأجابه سمير: نعم يا دكتور منير.. كيف لي أن أخدمك؟

فقال له دكتور منير: يا سمير، من فضلك.. أترى تلك السيدة التي تجلس في الزاوية التي هناك في آخر الحديقة؟ أتعرف من هي؟ أهي نزيلة، أم جاءت لتزور أحد النزلاء، أم إنها تعمل معنا، أم ماذا؟!

سأل كل هذه الأسئلة دفعة واحدة وهو مرتبك، فأجابه سمير بسرعة شديدة؛ حتى يوقف ذلك الارتباك الواضح بصورة جلية على وجه الدكتور منير:

- يا دكتور منير، إنها نزيلة حديثة هنا أتت منذ يومين، بينما كنت حضرتك في إجازتك الأسبوعية.

فشكره الدكتور منير قائلًا: حسنًا يا سمير.. أشكرك.

وسرعان ما انصرف إلى شئون المرضى؛ كي يعرف كافة التفاصيل عن سيدة القصر التي كانت في تلك اللحظة قد



بدأت تغادر مكانها متجهة إلى بهو المستشفى؛ كي تصعد غرفتها على ما يبدو.

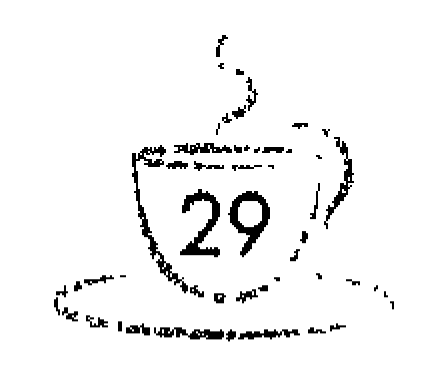
ووقف يتابعها عن كثب حتى توارت عن عينيه فودعها بنظراته، وكان لسان حاله يقول: انتظري قليلًا.. لا تنهي هذه المتعة من فضلك...

قاطعه جرس الهاتف الداخلي ليستيقظ من تلك الذكرى فتنبه إلى أنه منذ أكثر من دقيقة كاملة وهو ينظر مباشرة في عيني السيدة إحسان التي كانت بدورها تنظر إليه بتعجب شديد؛ لتعرف ما السر وراء شروده في عينيها.

فشعر الدكتور منير بالحرج الشديد، وأشاح بوجهه بعيدًا عن عينيها وأجاب على الهاتف مرتبكًا: دكتور منير يتحدث.. من معي؟

على الناحية الأخرى، كان عامل الاستقبال يحييه ويقول له إن هناك طردًا قد جاء إليه، ولا بد أن يتسلمه هو شخصيًا..

فشكره الدكتور منير، وأخبره بأن يرسل إليه الطرد لمكتبه حتى يتسلمه،



وأغلق الهاتف، ونظر إلى السـيدة إحسـان بخجل وإحراج شديديْن قائلًا:

عذرًا سيدة إحسان عما حدث، فأنا...

قاطعته قائلة: أنت رجل.

ثم ابتسـمت ابتسـامة غريبة جدًّا مع ضحكة بصوت عالٍ لا تليـق أبدًا بسـيدة مجتمع في مثـل رونقها، لكنهـا كان ضحكة لراقصـة تعمل في ملهى ليلـي من الدرجة الثالثـة.. وهنا تذكر كلمات الدكتور «أندرو» أبواب الجحيم..

فتدارك الأمر بسرعة مُتحاشـيًا النظر في عينيها قائلًا: حسنًا سيدة إحسان، ماذا تودين أن تقولي لي عن نفسكِ؟

قالت: أنا اسمي إحسان، أبلغ من العمر 37 عامًا و...

هنا سـمعا معًـا صوت طرقـات خفيفة على البـاب، ودلف إلى الداخل عامل الاستقبال ومعه شخص يبدو من ملابسه أنه موظف شـركة الشـحن، ويحمل بين يديه الطـرد الذي جاء به إلى الدكتور منير.

وتسلمه الدكتور منير وهَمَّ أن يوقِّع على بوليصة «الاستلام» لكنه فوجئ بشيء غريب جدًّا..

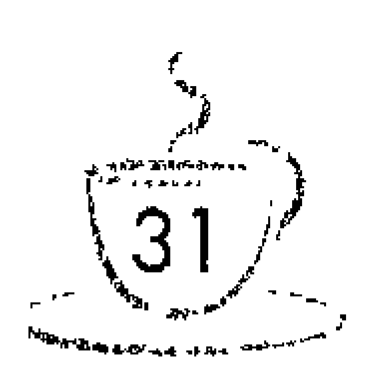
إن المرسل هو الدكتور منير راشد، والأغرب أن الطرد قادم من دولة الإمارات، وبالتحديد من إمارة دبي.

كان موقفًا يحوي العديد من علامات الاستفهام والتعجب، لكنه سرعان ما استدرك الأمر؛ لأنه الآن يعمل ويجلس مع الحالة.. فشكر موظف شركة الشحن الذي غادر بدوره مع عامل الاستقبال..

وتوجه معتذرًا للسيدة إحسان بقوله إنه ليس صحيحًا ما حدث، وما بدر منه من أن يقطع جلسته معها من أجل أن يتسلم طردًا شخصيًّا.

فأجابته بإيماءة برأسها تحمل معنى أنها قد تفهمت الموقف.

في هذه المرة، لم يجلس الدكتور منير خلف مكتبه لكنه جلس في الكرسي المقابل للسيدة إحسان، وقال لها: حسنًا سيدتي.. ماذا كنا نقول؟



قالـت لـه: كنـت أقـول إنني امـرأة لعـوب، أعشـق الرجال عشـقًا، وأود أن أكـون كل يـوم مـع رجل أخوض معـه معركة وحربًا ضروسًـا.. وفي صباح اليوم التالي لا أطيق حتى أن أراه أمامـي وأندم ندمًا شـديدًا عما حدث.. ولا تكاد تمر سـاعات قليلـة حتى أريد أن أعيد التجربة مرة أخرى.. وهكذا أصبحت الحياة بالنسبة إليَّ شهوةً وندمًا.

كانـت عيناهـا تلمعان بشـكل غريب وهي تتحـدث، كانت تنظـر بتحـدٍّ شـديد إلـى الدكتـور منير الـذي كان عقلـه يعمل بشـدة ويراقـب بهدوء كيـف تكمـن وراء تلك الملامـح التي توحـي بالهدوء والسـكينة تلك المـرأة الشـهوانية العنيفة التي تتلـذذ بالنيْل من الرجال لمدة ليلـة واحدة فقط، مع العلم بأنها متزوجة، ومما قد سـمع من كلامها أنه لا يوجد سـبب يدفعها إلى تلك الخيانة؛ حيث إن زوجها مما عُلم منها على قدر عالٍ من الثقافة والوسـامة والثراء، وأيضًا لا توجد مشـكلة لديه في تلبية احتياجاتها الجسـدية والنفسـية؛ لذا أخذ عقله يعمل على تسـاؤل واحد، وأصبح هذا التساؤل هو شـغله الشاغل.. وفي خلفية السياق كان صوت السيدة إحسان لا يزال ينهمر بالمزيد

مـن الأحداث المثيرة حول قصص خيانتهـا المختلفة وصلت تلك التفاصيل حتى غرفة نومها وسـريرها.. في تلك اللحظة، كان عقل الدكتور منير يجيب عن التساؤل الذي قد طرحه على نفسه.. إنها امرأة مريضة بالخيانة؛ فظاهريًّا لا يوجد ما يدعوها لذلـك، ولكن داخليًّا كانت مثل النار كلمـا ألقيت إليها المزيد من الحطب اشتعلت أكثر.. لا تشبع أبدًا؛ كانت مريضة بشهوة الخيانة.

لا يوجـد مبرر فـي الدنيا يبرر الخيانة أيًّـا كانت.. وأي مبرر يضعه الخائن أمام نفسه لكي يبرر خيانته ما هو إلا جسر وضعه حتـى يعبـر إلـى المنطقة التـي يريدهـا دون أن يؤلمـه ويوخزه ضميره فيسـكنه ذلـك المبرر لفتـرة تلو الأخـرى حتى يموت الضمير ويصبح المبرر هو الهوى الذي يتبعه ويقدسه.

في اعتقادي أن الخيانة أشـد من القتـل، فإنك عندما تخون تكـون في تلك اللحظة قد تجردت من آدميتك وتركت الأمانة التـي حملك الله إياها.. فإنك عندما تخون تقتل شـخصًا أدار لـك ظهره وهو مطمئن.. سـلم إليك مفاتيحه ووثق بك، وكان



جـزاؤه طعنة أصابته في مقتـل.. فهكذا هو الخائن يقتل الأمان قبل أن يقتل الإنسان.

■■■

عصفـت هذه الإجابـة التي فرضهـا عقل الدكتـور منير ردًّا علـى تسـاؤله بـكل علامـات التعجب التـي كانت لديه بشـأن السـيدة إحسـان؛ فلقد وجد نفسـه قد فعل مثلما فعلت السيدة إحسـان تمامًا؛ لقد كان يعيش مع أجمل نسـاء الأرض شـكلًا ومضمونًا، ومع ذلك كان يخونها بلا مبرر، أو كان يبرر لنفسـه ما يفعل.

حقًّا.. لقد كان الدكتور منير خائنًا بالفطرة..

تنبه الدكتور منير لصوت السـيدة إحسـان الذي بح على إثر دخولهـا فـي نوبة بكاء شـديد، وهي تـردد كلمة واحـدة: «إلا ولدي يا دكتور منير.. إلا ولدي يا دكتور منير».

■■■

وقبـل هذا اليوم الخامس من نوفمبـر بأيام قليلة، وفي غرفة واسـعة بالـدور الخامس بالمستشـفى الذي يعمل بـه الدكتور



منير، وخلف مكتب مهندم ومنمق من الزجاج الأسود، والذي يوحي بالوقار الشديد مع إضاءة خافتة تضفي لمسة من الهدوء على الجو المحيط بالمكان، وانتشار كثيف للعديد من النباتات التي تنمو في الظل، وكم هائل من الشهادات المُعلقة على الحوائط الخاصة بالمكتب كان يجلس الدكتور «أندرو وهبي»؛ رجل في أواخر الخمسينات من عمره أشيب الفودين، انتشرت بعض خصل الشعر الرمادية في مقدمة رأسه أضفت إليه وسامة فوق وسامته، ذو بشرة بيضاء تشبه بشرة سكان دول حوض البحر الأبيض المتوسط مرتديًا رداء الأطباء الأبيض فوق قميص لبني اللون وبنطال أسود ورباطة عنق حمراء، تبدو من ملامحه الرزانة والحكمة، ومن ملبسه المُهندم تبدو أناقته الملحوظة.

■■■



كان يتحدث إلى سيدة تتشح بالسواد، ذات شعر أسود مُنسدل على كتفيها قائلًا: دكتورة هند.. لا أعرف كيف أشكرك لأنِك وافقتِ على أن تخوضي معنا هذه التجربة، وتُسهمي معي في علاج ابني.

نعم إنه ابني، بل هو أكثر من ذلك.. اسمحي لي بأن أقول لكِ إنني لم أتزوج، وأعتبره كابني تمامًا، وهو يستحق ذلك؛ لأنه دائمًا ما كان إلى جواري، ولم يخذلني يومًا ما، ولم يقصِّر تجاهي قطُّ.

عهدته دومًا متفوقًا ومرحًا وجادًّا في عمله، بارًّا بأهله وكان يعتبرني دومًا كأبيه.

هل تعلمين أنه منذ ذلك اليوم المشئوم وأنا أشعر باليُتم، فإنك عندما تفقدين ابنك تشعرين باليُتم؛ فابنك هو أبوكِ؛ هو من يرعاكِ في طفولة شيخوختك، ومصيبتي أنني لم أفقده بوفاته بل أفقده كل يوم أمام عيني وهو حي يُرزق.

أنتِ تعلمين المرض الذي ألَمَّ به.. قلبي يعتصر ألمًا من الداخل.. قالها وانسالت دمعة من تحت نظارته الطبية... فقاطعته الدكتورة هند قائلة: هوِّن عليك يا دكتور أندرو،

ولا داعي لأن تستدعي تلك الذكريات الحزينة، فأنا أعلم جيدًا مدى «غلاوته» عندك، فكونك تأتي بي من أمريكا «مخصوص» كي أسهم وأساعد في علاجه أنا وزملاء آخرون لهو أكبر دليل على حبك واهتمامك به.. ولتطمئن، فإن الخطة التي وضعت من قِبلكم وشاركت فيها أنا وزملائي سوف تؤتي ثمارها بإذن الله.. فنظر إليها قائلًا: آمل هذا، ولكنني أخشى من ذكائه العنيف.. أخشى أن يكتشفنا فينهار كل شيء، أتعلمين؟ إنه رغم كل ما يعتقد عنه أنه مغرور ولا يستمع لرأي أحد غير نفسه إلا أنه عكس ذلك تمامًا، وطيب القلب إلى درجة كبيرة، وذكي بطريقة مخيفة، وردد ضاحكًا: لقد كان يقول عن نفسه إنه نجم، وأنا أقول إنه كان بالفعل نجمًا.

لقد قال لي في يوم من الأيام: أبي.

لا تتعجبي، فإنه كان يناديني «أبي» في أثناء خلوتنا.

أبي، إنني أود أن أخبرك بسر.

قلت له: قل لي.

قال: أعتقد أنني قد وقعت في شِباك الحب.



تعجبت صارخًا ضاحكًا: أمعقول ما تقول.. أنت تسقط في شِباك الحب؟! أنت سمكة القرش التي لا تلتهم الأسماك فحسب، بل تلتهم أيضًا الشباك ومعها الصياد نفسه أساسًا.

فردَّ عليَّ قائلًا: أبي، كفى مزاحًا وإلا فلن أستكمل.

قلت: لا.. لا.. لا، بل اسرد لي ما حدث بالتفصيل.

قال: حسنًا، لا أدري من أين أبدأ! لقد رأيتها تجلس بحديقة المستشفى ملكة تمتلك مفاتيح الأرض بين يديها؛ عذبة لينة كزهرة تتفتح في ربيع الكرة الأرضية الأول، أو كأنها رياح أتت مُحملة بنسمة هواء باردة في يوم شديد الحرارة.

حاولت أن أتعرف إليها لكنها أشاحت بوجهها عني، ورفضت حتى أن تحدثني فاضطررت أن أنصرف رغمًا عني، فانصرفت وسألت عنها في شئون المرضى فعلمت أنها نزيلة حديثة هنا، فقلت له: «دكتور، لا تقل لي إنها (دارين)؛ تلك الفتاة التي تحمل جمالًا ملائكيًّا.. لكنها خرساء يا منير؟؟!!».

فردَّ منير قائلًا: نعم، لقد علمت هذا من ملفها في شئون المرضى، وكذلك علمت أنها أتت لتتعافى من آثار حادث الاعتداء جنسيًّا عليها بعد أن تم خطفها هي ووالدتها وقاموا

بقتل والدتها، ودخولها حالة انهيار عصبي أدت إلى حالة اكتئاب، وهو ما أفقدها النطق تمامًا وفشلت كل الحلول الطبية التداخلية الأخرى في علاجها، ولم يكن أمام أهلها مفرٌّ سوى أن يدخلوها هنا المستشفى كي نتابع حالتها ونحاول أن نجد طريقة لإتمام شفائها.

فقلت له: وبعد ذلك كله أما زلت تعتقد أنك تحبها.. هذا كله من نظرة يا ولدي.

فأجابني قائلًا: أبي، أنت تعرف جيدًا من أنا، وشخص مثلي عندما يقول إنه وقع في الحب فهذا يعني أنه قد وقع في الحب.. فالحب ليس سهمًا يصيب القلوب كما في الأساطير، لكنه رزق من الله عز وجل يلقيه في القلوب إلقاءً.. فلدينا آية في القرآن تقول: {وفي السماء رزقكم وما توعدون}، وتعني أن الرزق نوعان: رزق يأتي بالسعي، ورزق آتٍ دون جهد منا، وإني لعلى يقين بأن «دارين» هي رزقي الذي أتى إليَّ دون سعي أو جهد مني؛ فلقد ألقى الله حبها في قلبي إلقاءً.. لقد رزقت حبها يا أبي.. لقد رزقت حبها.

فقلت له: حسنًا يا ولدي، ولكن عليك أن تدرك أنها مريضة لدينا، وأن علينا أن نراعيها جيدًا.

فقال لي: أعلم يا أبي، وإني أراعي الله في عملي.. وأنت أكثر شخص يعرف هذا، ولكن كل رجائي أن تنقل هذه الحالة إليَّ لكي أباشر حالتها شخصيًّا..

وأمام ضغطه الشديد عليَّ يا دكتورةهند اضطررت أن أوافق على ذلك، وليتني لم أوافق - قالها بأسى شديد فلقد أرسلته بيدي إلى هذا المصير المجهول، بينما كنت أظن أنني أهديه مفاتيح السعادة، لكنني أهديته مفاتيح الألم والشقاء.

فقالت الدكتورة هند: أعلم يا سيدي هذا كله، كما أعلم أيضًا أنك لم تكن تعلم الغيب، وكل ما هنالك أنك حاولت أن ترى من تعتبره ابنك سعيدًا في حياتك، لكنها هي الحياة يا سيدي؛ إذا أعطتنا لذة أخذت منا لذَّاتٍ، وكأنها تتلذذ بعذابنا النفسي، وضحكت قائلة: وحتى نجد نحن معشر الأطباء النفسيين عملًا لنا في هذه الحياة.

أخرجت دعابتها دكتور أندرو قليلًا من حالة الحزن الدفين التي كانت تعتريه، وعدل من وضع نظارته الطبية بطريقة مسح



بهـا دموعه دون أن يلفـت نظر الدكتورة هند، ثم قال بابتسـامة خفيفـة تمامًا مثلمـا تقولين يا دكتورة هند؛ حتى نسـتطيع نحن معشـر الأطباء النفسـيين أن نجـد لنا عملًا في هـذه الدنيا.. ثم قامت لتنصرف.. فقال لها: كان الله في عونك يا دكتورة هند.

■■■

لـم تكد تمر دقيقة من انصرافها إلا وكان الدكتور منير يطرق باب الدكتور أندرو ويدخل عليه مُلقيًا السـلام، ثم جلس على الأريكـة المقابلـة لمكتبه، فردَّ الدكتور أندرو السـلام قائلًا: ما بكَ يا منير؟ تبدو شارد الذهن.

أجابه منير قائلًا: نعم يا أبي، إن ذهني مشـغول جدًّا بالحالة التـي أرسـلتها لي اليـوم، إنهـا حالة عاديـة جدًّا جـدًّا؛ لدرجة جعلتنـي مرتبـكًا ولا أعـرف كيـف أتصـرف معها، إنهـا حالة شـعرت وهـي تتحدث أنها تتحدث عني أنا، شـعرت أن شـيئًا منها قد مسَّـني أنا شخصيًّا، وشعرت بكل ما تعانيه تلك الحالة يا أبي وكأن لسان حالها يقول لي إنه أنا أنت.. أليس هذا غريبًا يا أبي؟!



هنا عدل الدكتور أندرو وضع نظارته الطبية، لكنه كان بارعًا في إخفاء ما يدور داخله؛ حتى لا ينعكس على مظهره الخارجي ووقف خلف مكتبه يقول: أعتقد أن هذا طبيعي يا منير، فإنك من الأطباء الذين يتقمصون الشخصية التي يعالجونها؛ حتى يفكروا بنفس طريقة تفكيرهم، وحتى يتمكنوا من علاجهم بسهولة.. وفي رأيي أن هذا هو قمة الإبداع في العلاج.

يا منير، هكذا ناداه الدكتور أندرو بصوت عالٍ.. فلتعلم يا ولدي أن النفوس عندما يصيبها مرض تصبح خاوية تمامًا من الأمل، وتصير محطمة تحتاج لمن يعيد إليها الحياة، ويهتم بها اهتمام الأم بطفلها الرضيع.

إن الحالة التي يشعر بها المريض هي حالة اللاحالة، فكما تعلم أن كل العالم يعاني أمراضًا نفسية، وإن من يأتي إلينا هم الشجعان منهم فقط والباقي يتوارى خلف قناع القوة المزيف، مدعيًا أنه في أفضل حال.. فنحن البشر نخاف من سهام النقد أكثر من خوفنا من المرض؛ لهذا يا منير.. إن تقمص شخصية الحالة هي أمثل الطرق كي نعلم فيما تفكر لأنه في أغلب الأوقات تحاول الحالة الهرب منك فإذا أنت تقمصت

دورها عرفت أسلوبها في الهرب وتمكنت منها تمامًا، ثم ضحك قائلًا: ماذا أفعل الآن؟ أعطي أنا الفقير إلى الله درسًا إلى الأستاذ العظيم الدكتور منير راشد شخصيًّا.. فبادله منير بضحكات مماثلة، وقال: حاشا لله يا دكتور أندرو، فستظل دائمًا أستاذي ومُعلمي.

فصاح الدكتور أندرو: وأبوك أيضًا يا ولد.

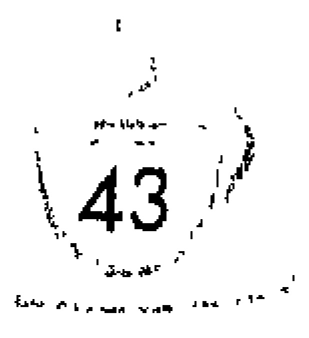
فضحك منير قائلًا: وأبي أيضًا.. أبي الوسيم الذي يخطف الحسناوات مني.

وانخرطا في نوبة ضحك شديد.

دخلت عليهم في هذه الأثناء نادية التي قالت بمكر أنثوي صارخ: لمَ لا تشاركونني معكم تلك الضحكات؟

فنظر إليها الدكتور منير، بينما رد الدكتور أندرو قائلًا: ما نضحك عليه شيء لا يخصك يا نادية، وكفى إقحامًا لنفسك في أمور لا تعرفينها.

فشعرت نادية بالحرج الشديد وارتبكت، فعاجلها الدكتور أندرو قائلًا: ماذا تريدين يا نادية؟ ماذا تريدين...؟



فقالت نادية مرتبكة: إن الحالة التي غادرها الدكتور منير منذ لحظات تتطلب لقاءه مرة أخرى لأمر بالغ الأهمية.

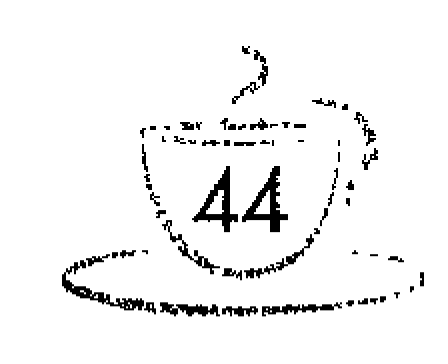
فنظر الدكتور أندرو إلى الدكتور منير قائلًا: ما الذي سوف تفعله يا دكتور منير؟

فقال الدكتور منير موجهًا حديثه لنادية: حسنًا أدخليه مكتبي، وأنا في طريقي إليه الآن.

فانصرفت نادية.. وقال الدكتور أندرو موجهًا كلامه للدكتور منير: لِمَ لا تعامل نادية معاملة حسنة؟

أجاب منير: أنت تعلم لماذا يا أبي.. إنها امرأة لعوب، ولا أريد أن أحتك بها أبدًا، ولا أعلم لماذا ما زلت تحتفظ بها في المستشفى حتى الآن.

فردَّ عليه الدكتور أندرو قائلًا: لأنها ليست لعوبًا على أي أحد آخر سواكَ يا منير، ولأنها ماهرة جدًّا في عملها وأنت تعلم جيدًا كم نعتمد عليها في العديد من الأشياء داخل المستشفى، ولا تنَس يا منير أنك أنت من أتيت بها إلى هنا، أم تحتاج لأن أذكرك كيفما جئت بها.

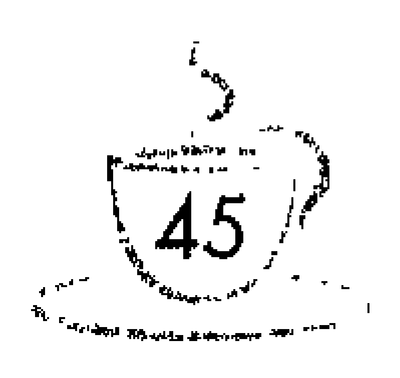


فرد منير قائلًا: كلا يا أبي، لا أحتاج أن تذكرني فأنا أعلم جيدًا.. قالها وقد تغيرت ملامح وجهه قليلًا، ثم أردف قائلًا: أتسمح لي يا دكتور أندرو بأن أنصرف الآن حتى أرى الحالة التي تريدني في المكتب ماذا تريد مني مرة أخرى.

فودعه الدكتور أندرو قائلًا: كلا يا ولدي، لا أريد شيئًا، وعندما تنتهي أريد أن أجلس معك قليلًا.

فودعه الدكتور منير وانصرف.. وفي طريقه لمكتبه تذكر كيف كان يشاغل نادية خلال عمله بالمستشفى الحكومي في بداية حياته العملية، وأنها كانت مجرد لعبة يتسلى بها، وأنه هو أيضًا من أتى بها إلى هذا المستشفى حتى يلهو بها وقتما يريد، يدرك أنه جعلها تقع في شِباك حبه؛ حتى أنها سلمت إليه كل شيء وانصرف عنها وتركها تعاني اللوعة واللهفة الشديدتين، لمجرد أن تنظر إليه وتنال رضاه فقط.. سبع سنوات كاملة وهي دائمًا ما تحاول حتى يرضى عنها.. يا لها من امرأة غريبة! سبع سنوات لا تمل ولا تكل..

يا لغرابة هذا الحب عندما يتملك من شخص ما يُنسيه حاجز الزمن، فتمر السنون لحظات.. وفي بعض الأوقات



يتوقف الزمن تمامًا وتشعر وكأن عقارب ساعتك لم تعد تشير إلى تلك الأرقام المُعبرة عن التوقيت، ولكنها صارت جميعًا تشير إلى من تحب؛ إلى من تعشق.. فأصبح الليل كالنهار والشتاء كالصيف، فأصبح التوقيت تعبيرًا مجازيًّا كحجيج يطوف حول قبلة واحدة.. «من تحب».

سرعان ما أفاق الدكتور منير وهو يدخل مكتبه؛ حيث تسمَّر في مكانه من هول المفاجأة التي رآها..

■ ■ ■

عاد الدكتور منير إلى منزله في هذا اليوم الشاق «الخامس من نوفمبر» الذي يعتبره من أصعب الأيام التي مرت عليه؛ فلقد تذكر فيه حبيبته وتألمت نفسه كثيرًا، فضلًا عما رآه من عجب العجاب في حالة السيدة إحسان؛ تلك الحالة التي تجسد الخيانة في صورتها المطلقة.. لقد أرهقته تلك الحالة لأنها مسته هو شخصيًّا، وفتح باب شقته ليدخل وقام بإنارة الأضواء وأخذ ينظر في أرجاء شقته وكأنه أول مرة يشاهدها وأخذ يشاهد ترتيب الأثاث، وذلك اللون الكحلي الذي ينتشر في المكان؛ فهو يعشق هذا اللون عشقًا خالصًا، ونظر

إلـى الأريكـة التي يشـاهد التلفاز وهـو جالس عليهـا، وتذكر محادثـة هاتفية دارت بينه وبين «دارين» وهو يجلس على تلك الأريكـة.. كانـت تخبـره فيها بأنهـا عرفت بأمر ناديـة وقصتها معـه، وكيـف أنه أنكر كل شـيء، وأخذ يبرر لها وينسـب إليها قصصًا وهمية، وهو يعلم تمام العلم أنه كاذب، وكيف استطاع بـكل مهارة أن يقلب الطاولة عليها ويكون هو الضحية.. كيف كان قاسيًا جدًّا عليها رغم أنه يعلم جيدًا أنه الظالم.. إنه الخائن لكنه اسـتغل أكبر نقـاط ضعف المرأة.. اسـتغل حبها له.. وما أدراكم كيف تكون المرأة عندما تحب؟

إن المـرأة إذا أحبـت أصبحـت تمامًا كزهرة دوار الشـمس تتحـرك فـي اتجـاه حبيبهـا أينمـا ذهـب.. أصبحـت كالطفلة المتعلقـة بأطراف ثوب أمهـا؛ خوفًا أن تتيـه أو تضيع.. أصبح من تحب هو درع الحماية والأمان في هذه الدنيا لها.

إن الأنثى إذا أحبت ضعفت؛ فهي تقوى بحبيبها وتستغنى به عن الدنيا.. أي شـيطان هذا الذي يستغل ضعف أنثاه وحاجتها إليه كي يجعلها تغفر وتعفو عن خطاياه المتكررة.. أي شيطان هذا؟



أنا هذا الشيطان!

رددها الدكتور منير بصوت عالٍ وهو يدخل غرفته مسرعًا، متحاشيًا النظر مرة أخرى لتلك الأريكة.. وقام بنزع ثيابه بعصبية شديدة وألقاها على سريره، وتوجه بسرعة إلى حمام غرفته وقام بملء حوض الاستحمام بالماء الدافئ، وأخذ نفسًا عميقًا ونزل في الماء؛ كي يريح جسده المرهق إلا أنه أخطأ خطأً كبيرًا في هذه الخطوة؛ إذ إن الجسد المستريح يمتلك عقلًا يفكر.. أمَّا الجسد المرهق فعقله لا وقت لديه للتفكير؛ لذا هاجمته كل ذكرياته دفعة واحدة، وكان هجومًا عنيفًا.

انتفض الدكتور منير من تلك الذكريات المؤلمة على صوت هاتفه الشخصي فقام مسرعًا ليرد عليه؛ إنه الدكتور أندرو على الطرف الآخر يقول له بصوت يشوبه هلع شديد: منير، من فضلك تعال حالًا إلى المستشفى.

حاول منير أن يستفهم أو يتبين أي شيء، ولكن كان الدكتور أندرو قد أغلق الهاتف؛ لذا أسرع منير بارتداء ملابسه بسرعة بالغة؛ كي يلحق بالمصيبة التي بالتأكيد قد وقعت وبدت جلية على صوت الدكتور أندرو.. وبينما يرتدي ملابسه في عجالة؛

إذ وقع منه جواز سفره فالتقطه متعجبًا متسائلًا: ما سبب وجود هذا الجواز داخل ملابسه الآن؟!

كان يوجد داخل الجواز بقايا تذكرة طيران فنظر لها فإذا بها تذكرة طيران خاصة برحلة عودة من دبي بتاريخ الأمس وعليها اسمه، فأخذ يفتش في الجواز بسرعة باحثًا عن أي ختم للدخول من المطار بتاريخ أمس فإذا به يُفاجأ بدخوله وخروجه في اليوم نفسه من القاهرة إلى دبي والعكس..

يا للهول! هكذا نطقها الدكتور منير فزعًا لا يدري ما يحدث وعقله توقف عن التفكير لكنه سرعان ما انتبه إلى المصيبة الموجودة لدى الدكتور أندرو بالمستشفى؛ لذا أكمل ارتداء ملابسه في عجالة ليلحق بأبيه فيما يبدو أنها ورطة كبيرة.. ولكن كان داخل عقله صراع رهيب.. تساؤلات: كيف أتى الطرد إليه يحمل اسمي من دبي؟ وكيف سافرت أنا أصلًا إلى دبي؟ لقد أنسته تلك التساؤلات الصراع الذي كان بداخله بسبب السيدة إحسان وخطيئة الخيانة.

■■■



وأخذ سيارته.. حاول كثيرًا الاتصال بالدكتور أندرو، لكنه كان لا يجيب فانفعل أكثر وظهرت عصبيته وتوتره في أسلوبه للقيادة؛ حيث كان يسير بسرعة شديدة جدًّا، وكاد أكثر من مرة يقع في حادث، تمامًا مثل ذلك اليوم الذي أخبر فيه حبيبته بأنه لا يحبها..

فبعد أن تركها وانصرف كان يسير بمثل تلك السرعة الجنونية.. كان يريد أن يهرب بأي شكل؛ كان يريد أن يهرب حتى من نفسه.

كيف استطاع أن يقول لها.. كيف استطاع ذلك..عامين كاملين منذ تسلم حالتها وهو يتابعها كل يوم.. كل لحظة.. كان يعاملها كطفلته.. يتابع كل يوم كيف كانت تكبر أمامه وتنضج.. أو كأنها زهرته التي غرس بيديه بذرتها، وكل يوم يتابع نموها وازدهارها أمام عينيه.

انتهت تلك الهواجس وقتما وصل بسيارته إلى باب المستشفى، وأسرع عابرًا الباب الزجاجي واستقل المصعد مسرعًا إلى مكتب الدكتور أندرو، وعندما دخل عليه وجده جالسًا على مكتبه وأمامه يجلس المريض الذي كان يتابعه



منـذ أيـام؛ ذلـك المريـض الـذي كان يتابعـه منـذ أيـام؛ ذلك المريـض الذي عندما كان مع الدكتور أنـدرو أخبرته نادية بأنه يريـده وعندمـا ذهب إليه بالفعل كل ما وجـده هو صورة كبيرة لـ «داريـن» مرسـومة بالقلم الرصـاص، وتحمل توقيع باسـم د.منير راشد.. ولكن الغريب في التوقيع أنه كان بالدم!

وكواحـد من الأسـرار الكثيرة التـي يمتلكها الدكتـور منير فقـد أخـذ اللوحة إلى منزلـه، وفي داخله العديـد من علامات الاسـتفهام: لماذا تحمل اللوحة توقيعه مع أنه أساسًـا لا يجيد الرسم؟ وإذا كان يجيده فلماذا أتت اللوحة إلى مكتبه؟ ولِمَ لم يجد المريض الذي كان قد طلبه؟

أحس أنه قد يجـد كل الإجابات عندما رأى المريض الذي كان معـه منـذ أيام؛ إنه السـيد جمال فهمي؛ مهنـدس معماري شـهير جدًّا، وله الكثير من الأعمـال المعروفة كما كان مذكور في ملف الحالة يجلس أمام الدكتور أندرو...

لذا بادره بالسـؤال: دكتور أندرو.. خير.. ما المشـكلة التي طلبتنـي مـن أجلها في هذا الوقت وبهـذه العجلة؟ وماذا يفعل السيد جمال هنا؟



أجابه الدكتور أندرو بهدوئه المعهود: استرح.

فاستراح منير على الأريكة التي دومًا يستريح عليها عندما يصعد إلى مكتب الدكتور أندرو، واستكمل الدكتور أندرو موجهًا حديثه للسيد جمال قائلًا: السيد جمال.. قل مجددًا بالتفصيل ما قد سردته لي قبل أن أقوم باستدعاء الدكتور منير.

فبدأ السيد جمال يسرد ما حدث قائلًا: جئت صبيحة ذلك اليوم إلى مستشفاكم الموقر لأني أعلم أنه أفضل مكان يمكن أن يقوم بإخراجي من الحالة التي أعيشها، وكذلك الحفاظ على سرية ما أعانيه..

وبالفعل أخذت موعدًا، وسألت عن أفضل الكوادر فدلوني على الدكتور منير راشد، وجئت إليه في الموعد المحدد.

تجاذبنا أطراف الحديث.. ودعني أشهد يا سيدي بأنه بارع جدًّا في أن يكسب ود من أمامه بلباقته، ومظهره، ولسانه الحسن.

وبدأت أسرد عليه مشكلتي التي تتلخص في أنني أعاني أرقًا شديدًا، وبعد وفاة زوجتي أعاني وحدة، وألمًا رهيبًا.



كل أصدقائي أخبروني بأنه ألم الفراق والعِشرة التي كانت بينكما، وأنها مسألة وقت وسيعود كل شيء إلى ما كان عليه، خاصة أنني من النوع المنشغل دائمًا؛ كثير العمل والسفر بطبيعة عملي كاستشاري للعديد من الشركات العالمية.

ولكنني كنت أنا الوحيد الذي يعرف السبب الحقيقي.. أنا الوحيد الذي كنت أعلم لماذا أنا على هذا الحال؛ لأنها ماتت من دون أن أعتذر لها.

ودون أن أخوض يا سيدي في مزيد من التفاصيل المُرهقة لي شخصيًّا وقد تكون غير مفيدة...

قاطعه الدكتور أندرو: بل احكِ كل شيء يا سيد جمال.. أريد أن أعرف كل شيء وليس مختصر الأمر من فضلك.

فتنهد السيد جمال وأرجع ظهره للكرسي الذي يجلس عليه وزاغ ببصره إلى زاوية من الغرفة التي يجلسون بها وكأنه يستدعي ذكريات الماضي أمام عينيه ليقصها عليهم.

■■■



إن الذكريات هي ذلك الطريق الخفي الذي يربطنا مع من فارقناهم؛ هي الملجأ والملاذ الوحيد لنا حتى نستطيع أن نعيش في هذه الدنيا.. فمن منا لا يتذكر أحد والديه أو كليهما أو صديقًا أو حبيبًا أو... أو... عندما فارق وغادر سواء بسبب الموت أو فراق الهجر.. مَن منا لم يتنهد أو يبكِ أو على الأقل يبتسم ابتسامة خفيفة لا يعلم مصدرها، ولكنها أتت من آخر ذلك الطريق الذى لا يزال يربطنا بمَن نحب؛ لذا علينا أن نصنع ذكريات كثيرة جميلة مع من نحب؛ لأنها ستصبح بعد ذلك طريقًا نسير فيه؛ لذا فلننظر إلى طريقنا أنريده محفوفًا بالورود أم مليئًا بالأشواك والمصاعب؟

■ ■ ■

وتنهد السيد جمال واستكمل حديثه: تعرفت إليها عندما كنا طلابًا بكلية الهندسة.. كانت زهرة تتفتح أوراقها لتنشر في المكان كل الحب والأمل والتفاؤل، ولم أكن ميسور الحال ومستواها أفضل مني، ولكن تعلق بعضنا ببعض بما قد رأيناه من مشاعر جميلة قد تربطنا، وكانت على العهد دومًا؛ كانت تساعدني في كل شيء حتى في أيام الامتحانات كان يمكن أن



تهمل مذاكرتها من أجلي، وكانت تقول لي دومًا إنني الطرف الأهم في العلاقة؛ كنت أظن من كثرة ما فعلته من أجلي أن هذا هو الطبيعي من الأنثى أن تبذل كل شيء من أجل الرجل.. وكم كنت أحمق..

وكم كنت أحمق.. أخذ يرددها وانسابت الدموع من عينيه، لكنه أخذ يسترسل في كلامه وتخرجنا وبدأت العمل وتزوجنا.

أتدري يا سيدي أنها لم تطلب مني يومًا أي شيء.. بمعنى أي شيء.. كانت دائمًا ما تهتم بي أنا وفقط.. بعملي بمواعيدي وبمظهري.. كانت تقول إننا لا نمتلك المزيد من النقود، وأنت واجهة الأسرة؛ لذا عليك أن تكون في أفضل مظهر.

رغم أن الدكتور منير سمع كل هذا من قبل فإنه لا يدري لماذا هزته تلك الجملة؛ فقد كان يسمعها دومًا من حبيبته.. فبعد أن تم شفاؤها كانت دومًا تذهب معه ليختار ملابسه؛ حتى يبدو في أبهى صورة، وتذكر أن هذا المظهر المُبهر الذي يعجب الناس به منذ هذه الأيام إنما هو نتاج ما قد غيرته به.. فإن للأنثى المحبة العاشقة لمسة إذا وضعتها على حبيبها



حولته من ذلك الشاب البسيط إلى ملك من ملوك أوربا في احتفال الجلوس على العرش.

فظهر الارتباك قليلًا على وجه الدكتور منير، وهو ما لاحظه الدكتور أندرو إلا أنه أعاد بصره إلى السيد جمال الذي كان يستكمل حديثه..

كانت تهتم بي في كل شيء حتى ظننت أيضًا أن النساء لا طلبات ولا احتياجات لهن.. وكم كنت غبيًّا.. كنت غبيًّا.. انشغلت عنها بعملي كنت أقضي فيه اليوم وأحيانًا أيامًا متصلة، وعندما أعود للمنزل إما أن أكمل عملًا وإما أن أنام بعد أن آكل مباشرة.

أتدريان كم كنت غير آدمي.. نعم غير آدمي؛ فكثير من الوقت كنت أعود للمنزل أجدها مريضة فأسألها عن الطعام ولا أسألها عن حالها.. وتخيلوا أنها كانت تعتذر أنها لم تستطع أن تعد الطعام لظروف المرض أو لظروف الحمل، وكنت أتهمها بالإهمال الجسيم وكأنها مصنوعة من معدن لا تمرض ولا يصيبها التعب.



نعم هي المخطئة.. هي المخطئة.. هي من جعلتني أظن أن هذا هو الطبيعي.. أن هذا هو دور أي حواء.

أنا الرجل خُلقت لأعمل وهي خُلقت كي تراعيني وتهتم بشئون حياتي فقط، كل المتطلبات لي، وهي لا شيء.

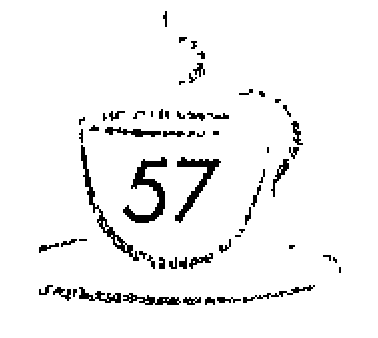
حتى في ولادة ابني اتصل بي أهلها أنها تعاني آلام الولادة، ولكنني أخبرتهم بأنني في عملي وسوف أجيء بعد أن أفرغ.

كانوا في غاية الغضب من رد فعلي، ورغم ذلك هي من قامت بالرد عليهم بـ: كان الله في عونه.

والكثير والكثير يا سادة.. الكثير والكثير..

لم أشعر بتربية أبنائي ولكنني وجدتهم تخرجوا في أفضل الكليات، وكانوا يحبونني جدًّا؛ فقد كانت تغرس فيهم حبي غرسًا، وكانت تخبرهم بمدى تعبي من أجلهم، مع أنه في الحقيقة أنا كنت أتعب من أجل نفسي.

كان كلما استكمل السيد جمال كلامه زاد الارتباك أكثر وأكثر على الدكتور منير، كان يبدو على وجهه أمارات الذهول والاستنكار، وكان يتصبب عرقًا بمعنى الكلمة، وقام مسرعًا



نحـو نافذة مكتـب الدكتور أندرو الذي ناداه قائـلاً: ماذا بك يا منيـر؟ لكن «منير» لـم يُجبه؛ لأنه لم يكن هنـا؛ منير كان يتذكر كل مواقف الأنانية والفردية التي كان يعامل بها حبيبته حتى أنه فارقها من أجل أنه أناني لا يستطيع أن يتخلى عن تلك الصفة ولو للحظة واحدة، وكأن التضحية قد صُنعت فقط من أجله.

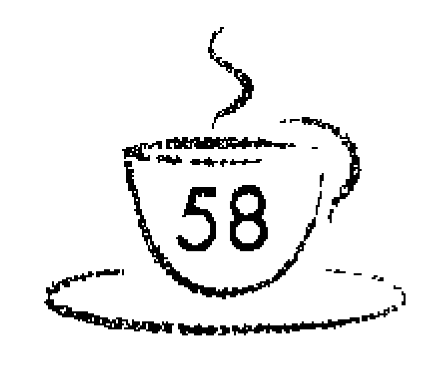
لم يعلموا أنه إن كانت تضحية المرأة من أجل الرجل واجبًا فـإن تضحية الرجل من أجلها فرض عيـن إذا لم تنفذ انتقصت من قدر الرجل وقوامته على المرأة.

إن القوامة أفعال لا أقوال أيها السادة.

وفـي ظل تلك الأثنـاء، قام الدكتور أنـدرو بوضع كفه على كتف الدكتور منير، وقال له: ما بك يا دكتور منير؟

انتبـه الدكتور منير إلى يـد الدكتور أندرو فاعتـدل ليواجهه وجهًا لوجه، وقال: لا شيء يا دكتور أندرو.. لا شيء، أنا على ما يرام.

فقال له الدكتور أندرو: يا منير، هذه ليسـت أول مرة تسـمع فيهـا هـذه القصـة، فأجابـه قائـلًا: نعم يـا دكتور أنـدرو، ولقد أخبرتك بأنها مسَّتني أنا شخصيًّا، ولا أعلم لماذا.



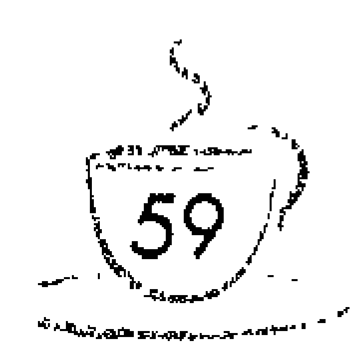
فردَّ الدكتور أندرو: فلتجلس ليكمل ما جاء من أجله، أعلم أن اليوم كان مرهقًا لك خاصة عقب لقائك بحالة السيدة إحسان؛ فهي حالة أعلم مدى صعوبتها وإلا ما كنت كتبت لك هذه التوصية.

فابتسم الدكتور منير ابتسامة خفيفة، ثم عاد إلى الأريكة مرة أخرى.. وأشار الدكتور أندرو للسيد جمال ليستكمل حديثه.

■ ■ ■

في هذه الأثناء، كانت الدكتورة في بهو المستشفى تجلس مع نادية تتجاذبان أطراف الحديث، وكيف أحبت نادية الدكتور منير موضحة أن الأنثى التي تحب بصدق لا تحب في الرجل مالًا أو وسامةً أو علمًا، لكنها تحب في الرجل إحساس الأمان؛ تحب فيه قوة الاحتواء ومعرفة خبايا الأنثى التي تشبه خلية النحل؛ فهي محمية بنحل له لسعات شديدة لكنك إذا تخطيته حظيتَ بمتعة ولذة لا مثيل لهما.

فمن الصعوبة بمكان أن تسلم المرأة عقلها إلا لمن تحب فقط، وهنا يكف عقلها تمامًا عن التفكير.. وتفكر بعقل من



تحب.. وتنظر بعين من تحب، حتى أنفاسها تصدر عن رئة من تحب؛ لتهبها لمن تحب.

وذكـرت لها العديد من المواقف التـي جمعتها مع الدكتور منيـر خلال سـبع سـنوات كاملـة مـن علاقتهما، ورويـت لها العديـد مـن رواياتـه ومغامراتـه إلا أنها توقفت عنـد قصته مع «دارين» قائلة:

أتعلميـن يا دكتورة هند.. كانت هـذه هي المرة الأولى التي أخـاف فيها على الدكتور منير من أنثى؛ فرغم أنني كنت أعرف كل نزواتـه، حتـى وهو معي، فإنها أول مرة أشـعر فيها بالخطر الشديد لعلها كانت الحاسـة السادسة التي نمتلكها نحن بنات حواء.

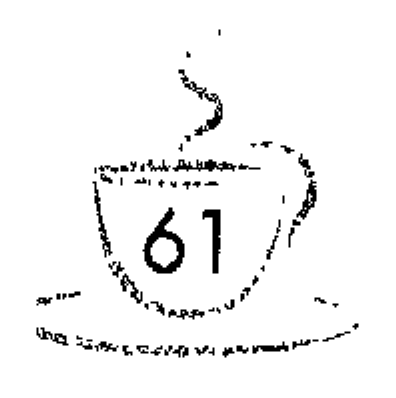
فمنـذ اليوم الـذي علمت فيه أنه طلب ملـف الحالة ليصبح معها ومع كل جلسـة متابعة معها.. وعـن نظرة عينيه يا دكتورة هنـد؛ نظـرة عينيه لها هي ما جعلتني أشـعر بالرعب الشـديد.. فإن الرجل إذا وقع في غرام أنثى كانت له نظرة عين لا تخطئها عيون الناس؛ لأنه إذا أحب تعلقت عيناه بعيني حبيبته فصار لا يرى غيرها.. ويكتفي بها عن كل لذات الدنيا.



وبالفعل كانت مخاوفي في محلها؛ لقد كنت أراه كيف يأتي كل صباح باكرًا عن مواعيده، وأعلم أيضًا أنه ينصرف آخر الليل وليس مثل عادته.. كان كل يوم يأتي بزهرة الأوركيد معه.. كل يوم، بمعنى كل يوم، ورأيته يفعل شيئًا غريبًا جدًّا.. لقد كان يكتب اسم «دارين» على أوراق الزهرة، وعندما فاجأته ذات مرة أخبرني بأنها إحدى طرق العلاج.. وكأنني أعمل في محل تجارة العطور ولست ممرضة أعمل في هذا المجال منذ سنوات.. وكنت أصدقه ليس لأنه صادق ولكن أحيانًا نجبر أنفسنا على أن نصدق من نحب حتى لا نخسره.. حتى لا نكسره أمام أعيننا.. وهذا ما كنت ولا أزال أفعله...

قاطعتها الدكتورة هند قائلة: المحير في الأمر يا نادية بالنسبة لي بعد كل ما سمعته من الدكتور أندرو ومنكِ عن قصة الحب هذه، وكيف استطاع بحبه لها أن يُخرجها من الحالة المرضية.. لماذا تركها بمثل هذه القسوة؟!





في أثناء ذلك، كانت سيارة من تلك الأنواع ذات الدفع الرباعي تتقدم نحو باب المستشفى لتنزل منها امرأة أقل ما توصف بأنها «فينوس» ذلك العصر، ترتدي فستانًا وردي اللون يتماشى مع لون خديها الوردي.. أما عن عطرها فقد فاق وحده عطر كل زهرة في حديقة المستشفى الخارجية؛ فتعطرت الزهور بعطرها حتى إن انعكاس صورتها على باب المستشفى الزجاجي كان له ضي كانعكاس ضوء الشمس عليه.. رغم أن الوقت في آخر الليل.

ودلفت إلى الداخل، وذهبت إلى موظف الاستقبال الذي بادرها بالتحية وهو زائغ البصر حتى ظن أنه مات وحوسب ودخل الجنة، وأنه ينظر إلى واحدة من حور العين.. وقال لها: ماذا عساي أن أخدمك فيه يا سيدتي الفاضلة، قالت له إن لديها موعدًا مع الدكتور أندرو، وأرجو لقاءه

فقال لها: حسنًا.. من أقول له يا سيدتي الفاضلة يرغب في رؤيته،



فقالت لـه بكل عزة نفس: أنا المهندسة «دارين»؛ دارين كامل.

■■■

استكملت نادية إجابتها للدكتورة هند: الكل كان متعجبًا جدًّا مما حدث حتى أنا.. فرغم أنني كنت أكرهها كثيرًا وذلك لتعلق الدكتور منير بها فإنها كانت امرأة فريدة من نوعها؛ كانت تحوي جمالًا داخليًّا انعكس القليل منه على مظهرها الخارجي فظهرت وكأنها ملكة من ملكات الإغريق في حفل زفافها.

لقد راعها حتى تمكن حبها له وحبه لها من أن يجعلها تستعيد قدرتها على النطق.. لم تكن تريد الحياة لكنه أعاد إليها الحياة.. فإن الحب يا دكتورة هند له نفس مفعول الدم تمامًا؛ فهو يسري داخل الجسد دافئًا حاملًا معه الحياة إلى كل منطقة يصل إليها.

كان في بداية الأمر يطلب منها أن تكتب إليه كل ما تشعر به، وكان يأخذ كل ما تكتب ويقوم بعمل معرض من كتاباتها بمكتبه، كان مستمتعًا بحبه لها..



ولكن اعتقد أنه لم يستطع أن يتخلى عن حبه لنفسه.. نعم كان يحبها ولكن حبه لنفسه كان أكبر.. أكبر بكثير.

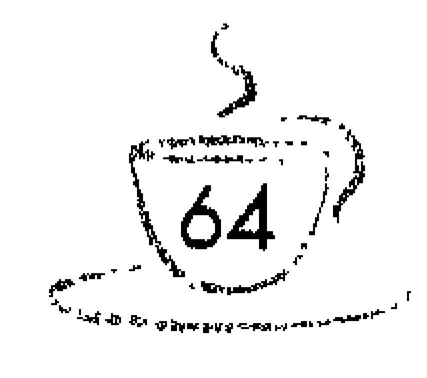
فقالت الدكتورة هند: هذا أيضًا ما كنت أسمعه من الدكتور أندرو.. على العموم، إنها مسألة وقت وكل شيء سيتضح.

ردت نادية: نعم لا بد أن يتضح كل شيء، لا بد أن يعود الدكتور منير كما كان قبل أن يعلم بوفاة «دارين»، لا بد أن يعود كما كان.

■ ■ ■

استطرد السيد جمال كلامه موجهًا حديثه للدكتور أندرو قائلًا:

وبعد أن قصصت ما قصصت أخبرني الدكتور منير بأنه كفى هذا اليوم، وأن نستكمل الباقي بعد غد، وودعته وانصرفت، وبعد أن ذهبت إلى سيارتي عدت مرة أخرى لأنني أحسست بأني أود أن أحكي لأحد لحظة وفاة زوجتي، وكيف كنت أنانيًّا حتى في تلك اللحظة.



هنا انقض الدكتور منير بشكل غريب ومفاجئ على السيد جمال ممسكًا إياه بعنف شديد، وبدأ يصيح: قتلتها أيها الأناني؛ قتلتها بأنانيتك.

فهبَّ الدكتور أندرو مسرعًا مُبعدًا الدكتور منير عن السيد جمال الذي كان يصرخ: أرأيت؟ أرأيت يا دكتور أندرو؟ هذا هو ما فعله معي تمامًا بعد جلستنا الثانية التي طلبت فيها رؤيته على عجَلٍ.

صاح الدكتور منير: ماذا فعلت معك؟ لقد عدت إلى المكتب ولم أجدك.

قال السيد جمال: كلا، لقد وجدتني.

هنا دفع الدكتور أندرو الدكتور منير قائلًا: اجلس يا منير.. اجلس.. واستمع للسيد جمال.

فصاح منير: لكنه كاذب.. أبي.. أقصد يا دكتور أندرو.

فقال له الدكتور أندرو: إذن، لماذا انقضضت عليه هكذا؟!

لم يدرِ الدكتور منير وَقْع هذا السؤال عليه، وكان السؤال قد قسَّم ذاكرته إلى نصفيْن تمامًا مثلما تقسم شاشة السينما



كي تعبر عن مشهد واحد، ولكن بزاويتين متباينتين أو نهايتين مختلفتين؛ ونصف تذكر فيه نفسه وهو يدخل المكتب، ولم يجد أحدًا، وكيف أنه تعجب عندما وجد لوحة عليها صورة لـ "دارين" في منتصف المكتب، وكيف أنه أخذها معه إلى المنزل متعجبًا لما حدث.. ونصفه الآخر عندما دخل ووجد بالفعل السيد جمال جالسًا وعلى وجهه هموم الدنيا، فبادره قائلًا: لماذا أتيت مرة أخرى يا سيد جمال إلى هنا.

فردَّ قائلًا: لا أستطيع أن أذهب إلى المنزل قبل أن أخبرك بآخر قصة أنانيتي مع زوجتي حتى في وفاتها.

فرددتُ عليه قائلًا: حسنًا.. فلتحكِ لي إذا كان هذا سوف يريحك.

فقال السيد جمال: لقد أصيبت زوجتي في أواخر أيامها بسرطان الدم، وكانت تذهب وحدها لتتلقى العلاج؛ وذلك لسفري وانشغالي الدائم ولزواج أبنائنا وسفرهم إلى الخارج، حتى ذلك اليوم المشئوم الذي ولأول مرة أجدها تهاتفني، وتقول لي إنها تريدني أن أجيء إلى المنزل الآن لأنها في احتياج شديد إليَّ، كانت أول مرة في حياتنا تطلب مني



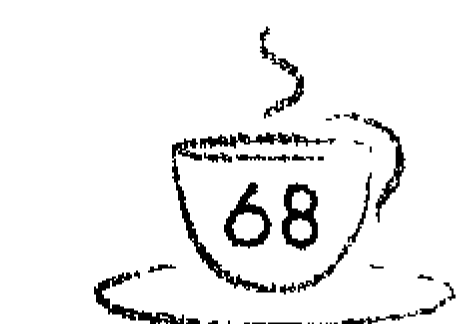
هـذا الطلـب إلا أننـي نهرتها في الهاتـف، وأخبرتهـا بأن لديَّ أعمالًا كثيرة، ونسـيت حتى أن أسـألها ماذا فعلت في علاجها حتـى الآن، وأغلقت الهاتف في وجههـا.. وبعد قليل، تلقيت مكالمـة من أختها تخبرني فيها بـأن زوجتي قد فارقت الحياة، وأنهـا لا تدري ما تفعل، فذهبت مسـرعًا إلـى المنزل ودخلت غرفتنا لأجد زوجتي نائمةً على فراشنا ووجهها يحمل ابتسامة كابتسـامتها فـي ليلـة زفافنا، وكأنها لـم تمُت وتغـادر الحياة.. العجيب أنها كانت تُمسـك في يديها بورقة فأخذت الورقة من يديها ووجدتها مكتوبًا فيها:

«زوجـي العزيـز، أملـي وأماني في هـذه الحياة.. أحببتـك واسـتمتعت بحبي لك، وكنت أجد سـعادتي دائمًا في القرب منك رغم انشـغالك عني، ولكني كنت أكتفي بأن أشـتمَّ رائحة نفسـك الذي كنت تتركه بأرجاء المنزل، أو بلمسـة دون قصد منك وأنت تناولني شيئًا ما، أو وأنت تتحرك في سريرنا مساءً.. راعيت الله فيكَ وفي أولادنا؛ فلقد كنت أرى فيهم روحك الشـابة، كنت أرى فـي نجاحك مقصدي وطلبـي؛ لذا لم أطلب منك



شـيئًا لأنك كنت دائـم النجـاح، ولما ابتلانـي الله بهذا المرض كان مَدعاة حزني أنني قد لا أقدر على خدمتك فـي أيام مرضي، أما عـن طلبي لك اليـوم على غير عادتي فلقد كان لأنني قد شعرت بدنو أجلي؛ لذلك أردت أن يكون آخر وجه أراه هو وجهك أنت، أردت أن أعتذر لـك عن تقصيـري تجاهك، عن تقصيـري في حبك، فلقد منحتني السعادة بوجودك في حياتي.. أردت أن يكـون آخر ما ألمسه في الدنيا هو وجهـك، أن أقبِّل يديـك مُعتذرة أني لن أسـتطيع أن أكـون إلى جوارك بعـد الآن.. ولكن عزائي أن ألتقي بك في الجنة.. وفي النهاية أنا أحبك وإن كانت لي دعوة في هذه الدنيا هي أن يرعاك الله من بعدي، وأن يجعل كل حياتك فرحًا ونجاحًا.. حبيبي وزوجي وسـر سعادتي أراك في جنة الخُلد على خير.. حبيبتك وزوجتك».

■■■



أفـاق الدكتـور منيـر على صراخ السيد جمال وهـو يقول: وأخـذ يهاجمني بعنف شـديد يا دكتور أنـدرو، وهو يقول لي: لماذا قتلتها؟ أنت قاتل، لقد قتلتها بأنانيتك يا منير.

وأنـا أصرخ وأقول له: أنا جمال، ولسـت «منيـر».. اتركني وابعد عنـي، لكنه قام وأخرج لوحة كبيـرة عليها صورة لامرأة مرسـومة، وقام بجرح نفسـه بسـكين المكتب، ثم وقع باسـمه علـى اللوحـة وبعدهـا فقـد الوعي وقمـت أنا بالهـرب خارج المستشـفى، ولـم أتمالك نفسـي لعدة أيام حتى اتخذت القرار بـأن أتـى إليك كمدير المستشـفى قبل أن أتوجه ببلاغ رسـمي إلى الجهات المسئولة؛ إنه غير طبيعي يا دكتور أندرو.. إنه غير طبيعـي.. لقد كاد يقتلني، كيف تسـمحون لـه بالعمل وهو في هذه الحالة.. كيف؟

انتبـه الدكتـور منير لما يقال فانفعل بشـدة قائلًا: أنا لا أعلم عمـا يتحـدث يا أبـي، لا أعلم علـى الإطلاق.. أنـا ذهبت إلى مكتبـي فلـم أجده.. قالها ببطء شـديد وهو يراجع مـا قد انتابه منذ لحظات، وبدأ يفكر في الأمر ولـم ينتبه إلى الدكتور أندرو، وهو يقترب منه ويقول له: اهدأ يا منير اهدأ.



ثم أجلسه على الأريكة وجلس إلى جواره، وهو يقول له: ولماذا يكذب رجل كالسيد جمال بشأنك يا منير؟ ولماذا؟

فقال له: لا أعلم يا دكتور أندرو.. لا أعلم، أنا أشعر بدوار شديد وصداع رهيب يكاد يقتلني، وأود أن أنصرف الآن.

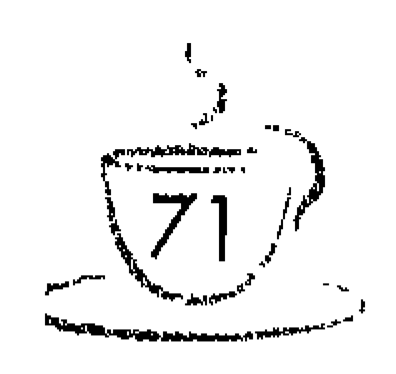
وماذا عن شكوى السيدة إحسان.. قالها الدكتور أندرو بصوت عالٍ جعل الدكتور منير ينتفض قائلًا: السيدة إحسان ماذا؟

قال الدكتور أندرو: السيدة إحسان بعد أن أنهيت معها الجلسة أتت لتخبرني بأنك قد تهجمت عليها هي أيضًا بعد أن انتهت من سرد مشكلتها معك، خصوصًا بعد أن أخبرتك بأن أحد أولادها يعالج نفسيًّا بعد أن اكتشف أمرها مع رجل غريب في المنزل.. وقالت إنك هاجمتها بعنف، وقمت بإخراج ساعة من داخل طرد أخبرتني بأنه قد أتى لك.. وإنك قد تسلمته وأنت معها في الجلسة، وأخذت تردد لها أن هذه الساعة هي التي وعدتني بها «دارين»؛ هذه هي الساعة التي أخبرتني بأنها سوف تأتي بها إليَّ كهدية في ذكرى لقائنا حتى أحسب عليها ثواني بعدها عني،



فأخذ وجه الدكتور منير في الاحمرار، وأحس الدكتور أندرو في تلك اللحظة أن علامات التعب بدت على وجهه وهو على دراية بإصابته بداء ضغط الدم المرتفع فأمسك به بحنان الأب قائلًا: اهدأ يا ولدي، واحتضنه بشدة.

وما أدراكم ما حِضن الأب لابنه، فرغم ما يقال عن قسوة الآباء وأنهم ليسوا كالأمهات في عطفهم وحنانهم.. ولكن دعنا نكن منصفين فإن حضن الأب لابنه هو قمة الأحساس بالأمان؛ هو ذلك الحضن الذي يعطي الدعم الكامل والمطلق، فالأب في العائلة رمز الحماية، قد يبدو دوره في الظاهر مقتصرًا على الإيفاء بمتطلبات الحياة، لكنه في الواقع هو العماد الأساسي الذي تقوم عليه حياة الأسرة بكاملها، هو رمز التضحية الحقيقي، وإن كل أمانيه في الحياة أن يرى أولاده في أحسن حال دون أن يتذوقوا ألم هذه الدنيا الصعبة، وأن يعيشوا أفضل مما هو عاش؛ لذا فلقد كان حضن الدكتور أندرو لمنير هو الجسر الحقيقي للعبور من تلك اللحظة العصيبة..



ثم همس الدكتور أندرو في أذن الدكتور منير: هل تناولت دواءك هذا الصباح أم كعادتك يا منير؟ فهمهم منير بما معناه أنه لم يتناول دواءه.

فقام الدكتور أندرو إلى الهاتف مخاطبًا نادية أن تأتي للدكتور منير بدوائه حالًا، ثم التفت الدكتور أندرو موجهًا حديثه للسيد جمال قائلًا: هل تسمح يا سيد جمال وأنا أعلم نُبل أخلاقك وكرمك أن نستكمل غدًا؛ لأنه كما ترى الحالة التي بها الدكتور منير الآن وأنا لا أود أن أزيد الأمر عليه.

فتفهم السيد جمال الأمر، ثم ودَّع الجميع وسرعان ما انصرف وهو يفتح باب المكتب في اللحظة نفسها التي كانت تدخل فيها نادية مسرعة حاملةً معها الدواء وكوب الماء، وعلى وجهها كل علامات الفزع والرعب قلقة على الدكتور منير، ثم ناولته الدواء قائلة: تفضل يا دكتور منير، يا ليت الأمر بي أنا وليس بك.. فالتفت إليها الدكتور منير وقال لها: شكرًا يا نادية على كرمك، وابتسم لها ابتسامة خفيفة..

ويا لتأثير تلك الابتسامة على نادية! فلقد نسيت تمامًا ما حدث لها طيلة سبع سنوات أليمة مليئة بالحزن والألم



والغيرة؛ سبع سنوات نسيتها فقط من ابتسامة واحدة.. هكذا هم العشاق إذا أحبوا أحدًا وعشقوه لربما استمتعوا بما يلاقونه من عذاب ممن أحبوا؛ فهم من الممكن أن يتحملوا عمرًا بأكمله من أجل ابتسامة من ذلك النوع الذى تلقته نادية الآن فنظرت إليه وكأن عينيها تحتضنانه، وكأن مشاعرها تزيل عنه كل تعب الدنيا.. وقالت بصوت هادئ على غير عادتها: دكتور منير، هوِّن عليك.. فمن ذاق عرف.

■■■

كانت المهندسة «دارين» في تلك اللحظات تجلس في بهو المستشفى منتظرة الصعود لمكتب الدكتور أندرو، وذلك على النحو الذي تم الاتفاق عليه مع الدكتور أندرو.. كانت عيناها تجوبان أنحاء المكان وقلبها أسرع من عينيها في رصد ما يحدث، ففي هذا المكان نشأ كل شيء وانتهى كل شيء.. لقد جاءت إلى ذلك المستشفى خرساء فاقدة عرضها، وأمها.. وخرجت منه تنطق وتحمل كل معاني الأمل في الحياة، وكانت كلمة السر في كل هذا هو الدكتور منير راشد..

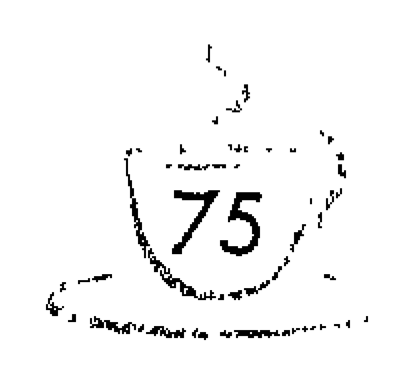
تذكرت ذلك اليوم التي استعادت فيه قدرتها على النطق؛ حيث كان الدكتور منير يعمل على هذا منذ شهور عديدة بلا يأس ولا كلل ولا ملل أبدًا، وكان يحيطها بحبه وحنانه أكثر من أي شيء، وكذلك هي فإن العيون لا تحتاج إلى لغة كي تعشق.. فإن للعيون لغة لا يفهمها إلا من يجيد الإحساس؛ فإذا أردت أن تعرف لغة العيون فعليك أن تنظر لعيني أب ينظر لابنه في حفل زفافه، أو عيني أمٍّ تنظر إلى رضيعها، أو إلى عيون عشاق تلاقوا بعد غياب؛ هكذا هي لغة العيون تحس ولا تقرأ، أو تدخل القلب مباشرة من دون أن تمر على العقل، أو أي شيء آخر..

وتذكرت كيف أنه أحب القهوة من أجلها؛ فهو لم يحتسِ القهوة قطُّ طيلة حياته، لكنه من أجلها كان يحتسيها معها كلَ يوم، في الصباح، وفي المساء، وفي أي وقت.. فمن يعتاد احتساء القهوة يعلم أنها جليسة جليسها، وأن لها سحرًا خاصًّا لا يكمن في طعمها، ولكن في المعانى القابعة خلف الفنجان؛ فكأنك عندما ترفع فنجانك لتحتسيها تضعه كأنه حاجز بينك وبين العالم الخارجي؛ ذلك العالم الفاني القاسي فتحتمي وراءه لتنعم بلحظة من العزلة عن ذلك الواقع الأليم؛ لذا ترى



أن أغلب المواهب والأعمال تخرج من وراء هذا الفنجان؛ «فنجان القهوة».

وخطر ببالها أنه في الليلة التي سبقت ذلك اليوم؛ اليوم الذي نطقت فيه.. كان قد طلب منها أن يأخذ فنجان القهوة الخاص بها؛ ذلك الفنجان الأبيض العاجي، وعندما أتى إليها في صبيحة ذلك اليوم أتى مسرعًا، وفي يديه حقيبة سوداء، وعلى وجهه ابتسامة غير المعهودة كل يوم؛ ابتسامة من يحتفظون بمفاجأة؛ فنحن هكذا.. إن احتفظنا بمفاجأة لمن نحب لا تستطيع عيوننا أو ابتساماتنا أن تخفيها فتفضحنا مباشرة، فرددت عليه التحية وعيناه تسألانه ماذا وراءك حبيبي؟ فبدأ حديثه بحركة مسرحية قائلًا: سيدتي، سيدة القصر، فلتمدي يدك المبجلة داخل حقيبتي المتواضعة وتُخرجي ما فيها، فقمت بفعل ذلك وأخرجت فنجاني قهوة تمامًا يشبهان فنجاني ولكن كان عليهما علامات وحروف وأرقام غريبة.. فتساءلت بتعبيرات وجهي وكأن لسان حالي يقول ما هذا؟ فأجابني منير مُستعرضًا بغرور الطاووس الذي يمتلكه: هذا هو فنجانك وفنجاني اللذان سوف نحتسي فيهما قهوتنا، ولقد أسميتهما «مندا»، نعم أول حرفين من اسمي وأول حرفين من



اسمك، وابتسم في ضحكة عريضة قائلًا: هيا بنا نشرب في «مندا» قهوتنا، ثم اتخذ وضعًا مسرحيًّا آخر كعادته.. ثم سار كما تسير النجوم قائلًا:

أما عن العلامات والحروف والأرقام فلقد سجلت هنا على «مندا» تاريخنا؛ فكل رقم إذا وضعتِه مع الآخر كون تاريخًا ما؛ تاريخًا يرمز ليوم تعرُّفي إليك، وآخر يرمز إلى أول ضحكة منك وآخر يرمز لأول يوم قلت لكِ فيه إني أحبك، وآخر يرمز لأول يوم قد كتبتِ لي فيه أنكِ تحبينني، وهكذا.. أما الحروف فمثلًا حرف «س» إذا أشرنا إليه ونحن نحتسي قهوتنا عليَّ أن أقول جملة تبدأ بحرف «س»، أو أن تكتبيها أنتِ مثل «ساحبك مدى حياتي» أو «سيدتي سأعشقك مدى حياتي»، وهكذا مع باقي الحروف؛ فنكون بذلك نحتسي قهوتنا ونلعب في الوقت نفسه.. فإن «مندا» فنجان القهوة والحب..

وما أدراكِ عندما تجتمع القهوة مع الحب؛ عندما يمتزجان ينتج عنهما ما نحن فيه الآن؛ إنه الشيء الذي لم ولن يفسر؛ لذا سنحاول أن نقربه إلى شيء معلوم للعقل البشري وهو العشق.. إذن «مندا» هو أداة العشق الخاصة بنا.

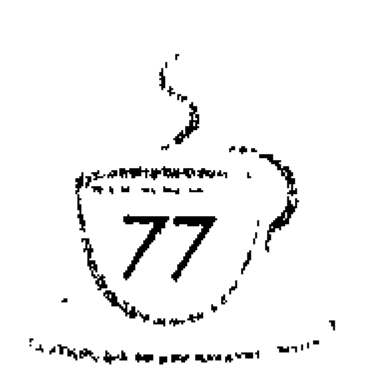


وعندما أتم منير كلامه بهذا الشكل المسرحي لم يكن أمامي بعد كل ما تولد داخلي من عشق له وحب كبير لم أشعر به في حياتي؛ حب أخذني لخارج حدود المجرة، أخذني للجنة الأبدية، أحسست بداخلي بشيء كاد يمزقني من فرط حبي له؛ لذا لم أجد أمامي مفرًّا سوى أن أصرخ قائلةً: أنا أحبك.. أنا أحبك.

■ ■ ■

انتهى الدكتور منير من تناول الدواء، والتفت للدكتور أندرو قائلًا: لا أدري ما يحدث يا أبي، إن هذا الرجل كاذب ولكن يوجد بداخلي شيء ما يصدقه.. ماذا أفعل يا أبي؟

أجابه الدكتور أندرو بهدوء: فلنذهب ونرَ ماذا سجلت الكاميرات، ونعلم هل فعلًا أتى الرجل مرة أخرى وذهب قبل أن تتدخل لمكتبك، أم أن كلامه صحيح، وكذلك لأريك اندفاع السيدة إحسان هاربة من مكتبك بعد انتهاء مقابلتك معها.. قالها بنبرة لم تُرح الدكتور منير فقال له متسائلًا: وهل رأيت الكاميرات يا دكتور أندرو؟



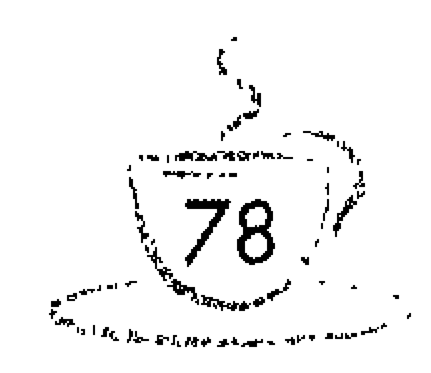
صمت الدكتور أندرو ونظر إلى الأرض متحاشيًا النظر في عيني منير، فأعاد منير السؤال مرة أخرى قائلًا: هل رأيت الكاميرات يا أبي؟

قال الدكتور أندرو والحزن يخيم على صوته وملامحه: نعم يا منير، لقد رأيتها وتأكدت من صحة كلامهم جميعًا، ولهذا أتيت بك الآن على وجه السرعة؛ لأنك ابني ولا بد أن نجد حلًّا يا منير.. ولا بد أن نجد حلًّا لهذه المشكلة على وجه السرعة..

إن حالك يا منير ليس على ما يرام منذ تركت «دارين»، وبعد أن علمت بحادث وفاتها في دولة الإمارات بعدها بأيام قليلة..

وهوِّن عليك يا منير.. بالتأكيد لست أنت من قتلها.. هذا هو نصيبها وأنت قلت لي بنفسك إنك لن تسعدها؛ لذا فقد تركتها بكامل إرادتك.

نظر إليه منير بأسى بالغ: نعم يا أبي، لم أكن سأسعدها.. إنها تحتاج إلى ملاك مثلها، أما أنا فبشري متلوث بآثام ذلك العالم البشري العفن.. وأمثال «دارين» كان لا بد أن يموتوا لأن الأبرياء مثلها لم ولن يستطيعوا أن يعيشوا في عالمنا هذا



أبدًا؛ لذا أرى أنه من العدل أنها ماتت؛ حتى تذهب لعالم أفضل وأنقى من هذا بكثير.

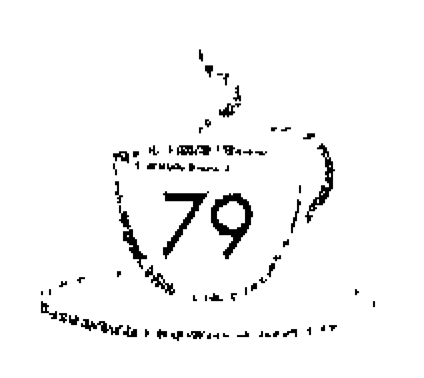
ولكن يا أبي انا من قتلها... أنا من قتلها.

ودخل في نوبة بكاء شديدة، ورن جرس الهاتف داخل مكتب الدكتور أندرو الذي قام مسرعًا يرد كي يلحق بابنه في هذه اللحظة العصيبة التي يمر بها.

ورد قائلًا: دكتور أندرو، وردد وعلى وجهه أمارات الذهول: من... من تقول إنه أتى لرؤيتي.. «دارين».

أخرجت تلك الكلمة الدكتور منير من بكائه، ونظر نظره المجذوب إلى حيث يتحدث الدكتور أندرو من خلف مكتبه صارخًا: ماذا.. ماذا تقول «دارين».. أهي داريني أنا؟!

لم ينطق الدكتور أندرو وترك الهاتف من يديه، ونظر في اتجاه منير الذي لم يتوانَ في الركض مسرعًا صوب باب المكتب وكأنه في سباق، حتى إنه نزل على قدميه كل تلك الأدوار في ثوانٍ معدودة ليهبط إلى بهو المستشفى، وأخذ يجول ببصره حتى وجدها تجلس هناك.. وصرخ قائلًا: دارين.. دارين.. أهو أنتِ؟! فنظرت إليه وهبت من مكانها



واتجهت مسرعة في اتجاهه صارخة: منير.. نعم هذا أنا.. وتوقف الزمن.. نعم توقف تمامًا.

■■■

لا توجد كلمات أستطيع أن أصف بها هذا المشهد وصعوبته حتى إن أفضل من أمسكوا بالقلم والريش لو كتبوا فلن يستطيعوا أن يصفوه ويعطوه حق قدره؛ فمن منا يستطيع أن يصف بدء الخلق؟ من منا يستطيع أن يصف كلمة حياة في كلمات؟ لا توصف أو ترسم في مشهد؛ إنما هي مشاعر وأحاسيس خلقت وولدت فقط لتُحس وتُعاش وتشعر أنها الرحمة الإلهية التي وهبنا الله إياها؛ حتى نستطيع أن نتحمل مصاعب تلك الدنيا الصعبة المُوحشة.

■■■

لم يتمالك منير نفسه ومر أمام شريط علاقته بـ «دارين» منذ رآها في الحديقة، ومنذ تابع حالتها ووقع في غرامها وحبه لها وحبها له، والقهوة التي رسمت علاقتهما وشفاءها وتعلقه الشديد بها، وكيف أنها غيرت من نفسها كثيرًا من أجله وتحملت أنانيته وخيانته المتكررة، وكيف أنه تركها بكل قسوة

حتى يستطيع أن يلتفت لأنانيته ونزواته مع كل النساء اللواتي يعرفهن، وكيف علم بخبر وفاتها من أخيها الذي أخبره بأنها ماتت ودُفنت، وأنه لن يستطيع حتى أن يودعها.

هذا كله مرَّ بعقله البشري دفعة واحدة، فلم يتحمل مثل تلك المشاعر والأحاسيس، فضلًا عن الحالة العصيبة التي كان يعيشها منذ قليل.. فسقط مغشيًّا عليه.

■ ■ ■

مُخاطبةً «دارين» قالت نادية: ولماذا فعلتِ كل هذا سيدة «دارين»؟ ولماذا اختلقتِ قصة موتك؟ ولماذا عُدتِ؟

أجابتها «دارين» والقلق يكاد يعصف بها وهما يقفان خارج الغرفة التي يرقد بها منير، والذي لم يفِق من صدمته حتى الآن قائلة: كان لا بد أن أخرج من حياته للأبد يا نادية.. فأنتِ مثلي، تعلمين أن منير كان بمجرد أن يشعر أنني قد ضعت منه سوف يعود ويبحث عني مجددًا؛ لذا سافرت إلى الإمارات، واختلقت قصة موتي؛ حتى ينساني نهائيًّا فأنا لم أكن لأتحمل منه أي جرح آخر، وكفى ما فعله بي خلال السنوات الماضية.. ورغم أنه كان سبب فرحي وشفائي وعودتي للحياة مرة أخرى

فإنه كان سبب شقائي، وكان السبب في قتل مشاعري وإهانة كرامتي، وهذا الموت أشد صعوبة وألمًا من الموت الجسدي؛ فالإنسان المجروح في مشاعره ينزف كل يوم دمًا لا يرى، ينزف مشاعر وأحاسيس تقتل الروح وتغتالها دون أن يموت؛ لذا فإن الموت الجسدي يعتبر راحة؛ راحة عظيمة؛ لذا افتعلت تلك القصة بأكملها.. أما عن سؤالك: لماذا عُدت.. فلقد علمت من أحد أصدقائي الذي قابلني مصادفةً بالإمارات عما ألمَّ بمنير من مرض، وأنه لم يستجب لأي علاج رافضًا فكرة كونه مريضًا، وانعزل بعيدًا عن كل الناس.. وهنا اتصلت بالدكتور أندرو الذي فوجئ هو أيضًا بوجودي على قيد الحياة، وأتى إليَّ في الإمارات مسرعًا، صدقيني لم أرَ أحدًا يحب «منير» مثل ذلك الرجل..

في تلك الآونة؛ كان لسان حال نادية يقول: بل أنا أحبه أكثر منكم جميعًا..

وعندما جلس معي الدكتور أندرو، وعلم كل شيء وقرر أن يغير استراتيجية علاج منير بأن يضع أمامه سلبياته التي أنهت علاقتنا مثل الأنانية والخيانة في صورة حالات مرضية،

ثم أشارت إلى الدكتورة هند والدكتور أكرم، وقالت: وقام بإحضار أولئك الأطباء العظام الذين لم يتوانوا عن فعل ذلك كله، وانتحال شخصية مرضى كي يستطيعوا أن يعالجوا «منير» دون أن يعرف شيئًا، لقد وضعوه وكشفوه أمام نفسه حتى جئنا إلى اللحظة التي اتفقت أنا والدكتور أندرو أن يراني فيها منير؛ حتى يصاب بمثل تلك الصدمة التي نأمل أن تكون خطوة في علاجه..

لقد سامحته يا نادية.. سامحته من كل قلبي .. نعم فهو أيضًا ساعدني بعدما تعرضت لحادث اعتداء، وكان يتعامل معي بكل رفق وحنان.. وعلى الرغم من قسوته وخيانته لي فإنه سيظل داخل منير دائمًا إنسان لا يعلمه أحد؛ داخله طفل استطعت أن أراه، أن أتمتع باللعب معه طيلة تلك السنوات؛ لذا لقد سامحته.. وأخذت تبكي بحُرقة شديدة.

في تلك اللحظة احتضنتها نادية، وأخذت تمسح دموعها رغم أنها تغار منها إلا أنها في النهاية أنثى تحمل داخلها مشاعر الضعف؛ لذا احترمت ضعف «دارين» واحتوتها وكأنها تحتوي منير الساكن في قلبها.. يا لروعة هذا الحب!



يا لروعة حب الأب المتجسد في حب الدكتور أندرو لابنه وتلميذه الدكتور منير!

ما أروع العشق الذي تحمله «دارين» لمنير! ما أروع الحب الذي تكنه نادية لمنير رغم قسوة ما تعرضت له!

ما أروع حب العطاء الذي تمتلكه الدكتورة هند والدكتور أكرم!

في تلك اللحظة داخل وخارج الغرفة التي يرقد بها منير كان هو بطل الأحداث؛ البطل الأوحد.. حتى وهو فاقد وعيه كان النجم؛ كان الأيقونة.

■■■

في حالة من نصف الإدراك ونصف الوعي كان على الدكتور منير أن يجيب عن بعض الأسئلة التي وضعها أمام نفسه كعقبة تفصله عن العودة الكاملة لوعيه وإدراكه؛ كان أهمها هذا السؤال: ما الحب؟ وأخذ يبحث عن وصف أو تعريف لما يسمى (الحب) فلم يجد.. فإن كانت مشاعر تنتاب الواحد من البشر تجاه بشري آخر؛ فما تفسيرنا لحب تملك الأشياء؟

إذن، الحب هو مشاعر تتملكنا رغمًا عنا.. تجبرنا على أن نفكر دومًا فيمن نحب.. تجبرنا على أن نشعر بالحنين تجاه من أو ما نحب؛ فنجد أنفسنا دائمًا في حالة اشتياق حتى وإن كنا نجلس معه؛ حالة لا منتهية من اللهفة واللوعة والاحتياج؛ حالة من الأمان في قربهم والخوف في بُعدهم؛ حالة تجعلنا نحبهم أكثر من أنفسنا؛ لذا نكون على استعداد كامل للتضحية بحياتنا من أجلهم، وإلا بماذا تفسر استعداد الأم للموت من أجل ولدها.. أو من يتبرع لأخيه أو حبيبه بكليته أو بفص من كبده، ويعرض نفسه لمثل هذه المخاطرة؛ إنها لذة الحب التي ملأ الله بها قلبنا فتفوقت على كل مشاعر الأنانية البشرية.

وتوقف عقله عند هذا المعنى.. أنا بالفعل أحب «دارين» إلى تلك الدرجة؟ كلا.. فإنه وإن كان قد أحبها لتلك الدرجة لتنازل عن حبه لنفسه الشديد؛ ذلك الحب المرضي الذي قتلها.. نعم إنها لم تمت جسديًّا كما عرف بعد ذلك، لكنه على يقين أنه قتل كل مشاعرها واغتال روحها الشابة التي زعم أنه أحبها.. كيف يمكن لشخص أن يقتل من يحب؟ أتقتل الأم

رضيعها؟ أيقتل الأب أولاده؟ هذا لا يحدث إلا مع المرضى فقط.. إذن، أنا مريض!

■■■

هكذا حدَّث عقل منير عقل الدكتور منير.. وهنا نصبت المحاكمة؛

تلك المحاكمة العلنية التي دعا إليها عقل الدكتور منير، وكان المتهم الأساسي فيها الدكتور منير، وكان القاضي هو «منير»، وكذلك كان هو الدفاع، وكان هو أيضًا الجالسين في القاعة.

أجِب يا منير لماذا قتلتها؟ هكذا سأله القاضي..

فأجاب منير صارخًا: أنا لم أقتلها.. لقد أحببتها من كل قلبي.. كنت أنا سبب شفائها وسعادتها في هذه الحياة..

فقام دفاع المجني عليها قائلًا: وكنت أيضًا سبب تعاستها بسبب أنانيتك وخيانتك المتكررة لها وبعدك المقصود عنها.. إنك لم تحبها وإذا كان الأمر كذلك فأجبني لمَ علقتها بك؟



أجـاب منيـر بتوتر بالـغ: لـم أعلقها بـي، لقد تعلقـت أنا بها وبعدهـا هي أحبتنـي.. وصدقوني لـم أخطط لذلـك قطُّ؛ فلقد وجدتها تنسـاب إلـى داخلي كانسـياب ماء المطـر داخل مياه النهر في ليلة جميلة ممطرة.

سـيدي القاضي، لا تلُم شـخصًا مثلي لم يرغب طيلة حياته أن يقع في حب فتاة مثل «دارين»، فإنك لو رأيتها فقط لعلمت أنها تستحق أن يخاض من أجلها المعارك..

ففاجـأه القاضي بسـؤال لم يتوقعه منير قائـلًا: وبالفعل هي كانت معركة يا سـيد منير، ومـا إن انتهيت منها وفزت بها حتى رحت تبحث لنفسـك عن انتصار آخـر ومعركة أخرى.. أليس كذلك؟

لـم يسـتطع منير أن يجيب القاضي بتاتًا، وأخذ يجول ببصره فـي أنحـاء القفـص بحثًا عـن مخرج يهـرب به مـن إجابة هذا السؤال.. فإنه كان كذلك بالفعل..

كانت بنات حواء بالنسـبة إليه معارك يخوضها الواحدة تلو الأخـرى.. ومـا إن ينتصر ويرفع رايته علـى تلك الأرض حتى



يتركها ويبحث عن أرض أخرى؛ كي يحتلها وكأنه نابليون بونابرت النساء..

لذا كلما همَّ لسانه أن ينطق كذبًا لم يجارِه عقله الذي يعلم الحقيقة.. يعلمها تمامًا فيصمت ولا يقوى على النطق.

فعاجله القاضي منير بسؤال آخر: ولماذا كنت وأنت معها تخوض معركة أخرى وتوقع نساء أخريات في حبالك؟ ولماذا لم تتركها مباشرة بعد أن انتهت معركتك معها؟

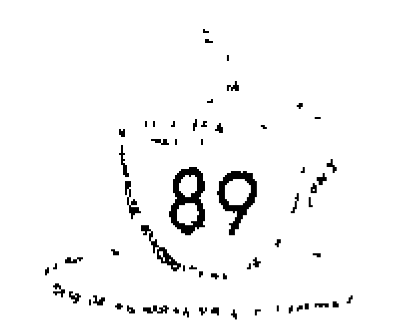
أجاب منير قائلًا: لقد كانت «دارين» بالنسبة لي معركة حياتي الأبدية، نعم.. لم أتخلَّ قطُّ عن فكرة غزو أراضٍ أخرى، لكنني اعتبرت «دارين» المملكة التي أقود منها كل غزواتي.. أتعلم سيدي القاضي بالأسطورة التي تقول إن آدم وحواء كانا جسدًا واحدًا فوقعا على صخرة فانقسما نصفين، ثم سار كل نصف في اتجاه يبحث عن نصفه الآخر حتى يجده.. كذلك كانت هي «دارين» نصفي الآخر الذي كنت أبحث عنه، وبعد أن وجدته لم أستطع قطُّ أن أعيش دونه.

سيدي القاضي، مخطئ من يبحث في علاقة الحب عن شخص يشبهه في كل شيء.. فالأقطاب المتشابهة تتنافر وهذه



هي سُـنة الله في الكون، لا بد أن يبحث عن شـخص يكمله.. يجبر نواقصه وكسـوره حتى يتكاملا فـي الحياة فتتكون بينهما العلاقة الأبدية؛ فإن الحب هو السـعي نحو الكمال والجمال؛ الحب أن تعشـق شـخصًا وأنت تعلم أنه بشـر به عيوب وليس ملكًا نزل من السماء؛ أن تتوقع منه أن يُبكيك مثلما يُضحكك؛ أن تعاملـه كطفلـك إن أخطـأ تقسـو عليـه قسـوة الأم الحانيـة بغرض الإصلاح، أو تعامله كصديق في حفظ الأسرار، في كل حالة تعامله بشخصية مختلفة حتى تحتويه وإلا ما كان المولى عـز وجل قـد أخبرنا فـي كتابـه الكريـم {وجعلنا بينهمـا مودة ورحمـة}.. وهما أسـاس النجاح فـي أي علاقة؛ المـودة التي دائمًا ما تدفعك إلى السعي نحو إسعاد شريكك والرحمة التي تدفعـك دفعًا إلى العفو عنه، والتماس العذر له في كل شـيء؛ في مرضه؛ في حزنه؛ في ضعفه؛ حتى في عصبيته وجنونه؛ لذا فإن «دارين» كانت بالنسبة إليَّ النقطة الفاصلة في حياتي...

قاطعـه دفاع المجني عليهـا «دارين» قائـلًا: وإذا كانت كما تدعي فلماذا تركتها؟ ولماذا تسببت في موتها؟



أجـاب منيـر: لقـد تركتهـا لأنـي أحسسـت بأنهـا دائمًا ما تذكرنـي بطبيعتي الشـيطانية، لا تقوى الشـياطين أن تعيش مع الملائكة.. لقد تركتها لأنني لم أكن أستوعب مدى سماحتها وكرمها معي، لم أسـتوعب معنـى الحب المطلق والعطاء بغير حـدود.. حسـنًا، لـن أكذب أكثر من هـذا.. لقد تركتهـا لأنها كانت دائمًا ما تفضحني أمام نفسـي؛ كنت دائمًا ما أشـعر معها بخستي وجُبني؛ لقد كنت أخونها في الصباح وأجدها في ظهر ذلـك اليوم قد أتت إليَّ بالغـداء قائلة لي إنها تعلم أنني لم آكل طيلـة اليوم؛ كنت أخونها عصرًا وأجدها متأنقة بالليل تدعوني إلـى دخـول السـينما، أو الذهاب إلى أي مـكان كي أخرج من ضغط العمـل؛ كانت تهتم بكل تفصيلاتـي الدقيقة.. وعلى ما يبدو سـيدي القاضـي أن المرأة لا بد ألا تحـب لهذه الدرجة؛ لأن الخيانـة طبع في معشـر الرجـال.. الخيانـة والأنانية.. لقد فطموا عليها وهم صغار...

قاطعـه القاضي: كلا، كفى ترهات؛ فهنـاك العديد والعديد من الرجال الشرفاء.. الرجال بمعنى الكلمة، والذين يحفظون الأمانة التي لديهم ويتقون الله فيها.



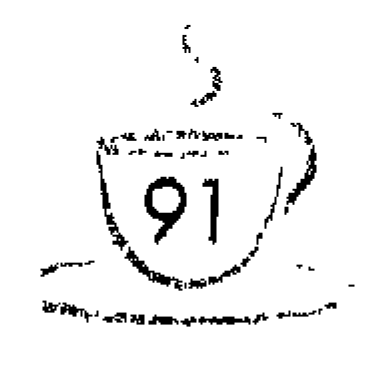
فضحك منير ساخرًا: دُلني على رجل مثل هذا وأنا أتزوجه، فرد القاضي: كفى عبثًا يا منير.. وأظهر بعض الاحترام لهيئة المحكمة.

فرد منير معتذرًا: حسنًا سيدي القاضي، ولكنني أظن أن الرجل المخلص لامرأة واحدة كالمستحيلات الثلاثة، بل أعتقد أنه رابع المستحيلات.

سيدي القاضي، لم أكن يومًا ما أعلم أنني أناني.. لقد كنت كالسيد جمال تمامًا أظن أن هذا هو الطبيعي بين الرجل والمرأة، أن الرجل خُلق فقط لينعم بالمرأة، وأن على المرأة أن تحترمه.. لا أدري لماذا؟

بل أعتقد أن ثقافتنا وطريقة تربيتنا منذ كنا صغارًا هي أن الولد يأكل فقط ويقوم من على المائدة.. أما البنت فهي من تعد الطعام، وأيضًا تغسل الأواني في حين يكون الولد مستريحًا بل إنه يُملي شروطه أيضًا.

من الجائز أن ثقافة مجتمعنا الشرقي المناصرة للولد منذ صغره هي من رسَّخت هذا المعتقد داخلي.. من الجائز جدًّا.



لكنني أقسم لك إنني لم أكن أعرف أنني أناني على الإطلاق...

فقاطعه القاضي قائلًا: وماذا عن خيانتك؟ أهي مكتسب وموروث ثقافي؟!

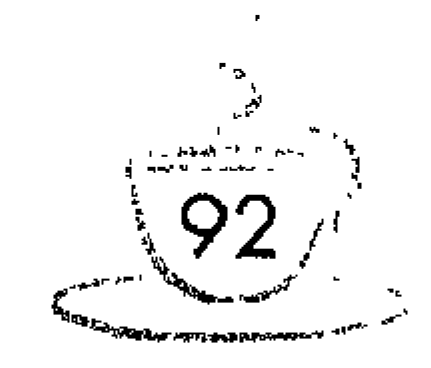
أجابه قائلًا: كلا.. كلا سيدي القاضي.. لقد كنت أعلم بخيانتي لكنها كانت شيئًا كالإدمان.. لقد كنت أحب أن أرى نفسي محل إعجاب الجميع.. لم أكن أعلم أنها خيانة.

فرد الدفاع قائلًا: أوهكذا صورها لك هواك؟

فرد منير: من الجائز.. من الجائز جدًّا.

لقد علمت بمعنى الخيانة فقط، وأنا أستمع للسيدة إحسان.. اعتقدت أنها أبغض شخص على وجه الأرض.. ثم اكتشفت أنني مثلها تمامًا أبغض شخص على وجه هذه الأرض.. أبغض شخص...

فقاطعه القاضي قائلًا: إذن تعترف يا منير بخيانتك وأنانيتك غير المسببة لـ «دارين»، وأنك حتى عندما تركتها كان من أجل



سبب خاص بك وليس لتتركها لحالها.. لعل الله يرزقها بمن يقدرها ويحبها بصدق.

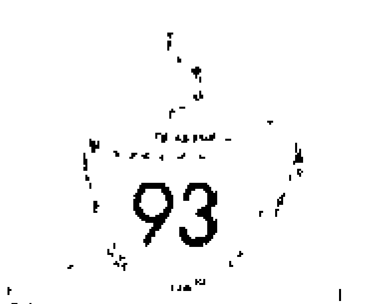
فرد منير بسرعة: بل إنني أحبها بصدق، ولكن أعترف سيدي القاضي.. أعترف بأنني كنت خائنًا وأنانيًّا.

فعدل القاضي من جلسته، ثم قال: بعد الاطلاع على كل ما جاء في الملفات الواردة إلينا، وبعد سماع دفاع المجني عليه ودفاع المتهم فقد قررنا الآتي: إن الخيانة والأنانية لا يجتمعان أبدًا في قلب يريد الحب.. إن الخيانة والأنانية مرض عُضال إذا أصاب القلب أماته، ولم يجد معه نفعًا فإن الحب تضحية وثقة ووفاء؛ فبغير ذلك لا تستقيم العلاقة أبدًا.. ومن يدخلها فهو ميت لا محالة.. فإذا لم يمت مثل «دارين» فسيصبح قاتلًا مثل منير.

وعليه، فقد قررت هيئة المحكمة الموقرة إحالة أوراق القضية إلى مفتي الجمهورية؛ للنظر في أمر إعدام منير بعد ثبوت تورطه في قتل «دارين».

رُفعت الجلسة.

■■■



في بدلته الحمراء اقتاد السـجان «منير» إلى حبل المشـنقة، ولـف الحبل حول رقبته، وقال له: هل لـك أمنية أو طلب قبل تنفيذ الحكم؟

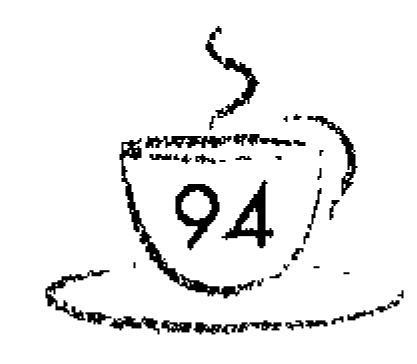
فقـال منيـر: نعـم أود أن أوجـه رسـالة إلـى العالـم أجمع: «أحبـوا.. إن الحـب صدقـة.. وألينـوا القلـوب وتراحمـوا.. واعلمـوا أن الأنانيـة شـر، وأن الخيانـة شـر، وأن الحب خير، ولـن ينتصر خير أمام شـرَّيْن.. إذا وجد أحدكـم «دارينه» فعليه أن يحافـظ عليهـا فـإن «الدارين» تأتـي مرة واحدة فـي العمر، والسلام ختام.

■■■

ومات منير الأناني والخائن.. مات منير الأناني والخائن.

استيقظ منير ليجد رأسـه بين يدي حبيبته ومعشوقته «دارين» فصاح قائلًا: لقد مات منير الأناني والخائن، أخذت تبكي بدموع الفرح وقد عاشت «دارين» من أجلك أنت.. من أجلك أنت.

ونظر في جانب الغرفة ليجد الدكتور أندرو يبكي ويضحك فـي آن واحـد قائلًا: حمدًا لله على سـلامتك يا ولدي.. حمدًا لله.



وبنظرة أخرى، اكتشف وجود السيد جمال والسيدة إحسان، فقال: وماذا يفعل السيد جمال والسيدة إحسان هنا؟!

فرد الدكتور أندرو: بل الدكتورة هند والدكتور أكرم.

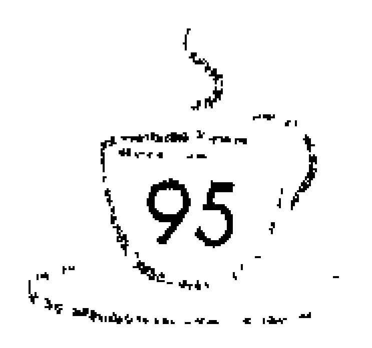
فأغمض عينيه واكتشف كل شيء.

اكتشف أنه كان مريضًا، وكان يفعل أشياء لا يعلم لماذا يفعلها.. تذكر سفره للإمارات كي يرسل لنفسه هدية، كما كانت «دارين» قد وعدته بأن ترسلها من هناك.. وتذكر أيضًا اللوحة التي جعل رسامًا يرسمها له لأنه كان سيهديها إلى «دارين» في هذا اليوم أيضًا.

تذكر كيف سردت السيدة إحسان والسيد جمال قصتهما بالشكل الذي يجبره إجبارًا على إسقاط كل شيء على شخصه؛ لقد كانت خطة مُحكمة لتجبره على علاج ذاته بنفسه.. وقد كان.

فتح عينيه وأراد أن يتحدث، فوضعت «دارين» يدها على فمه وهمست في أذنه: «أنا أحبك».








محمد راغب محمود
شاب مصري
شعاره في الحياه
أنت أملك الوحيد
تبدو الأمور من الخارج هادئة...
ولكن في الباطن يتمركز الإعصار...
قد تبدو العيون مغمضة...
ولكن خلفها عقل مستيقظ...
تبدو النهاية مثلما البداية
ولكن في الواقع البداية مثلما النهاية...
تفكير...!!!؟؟؟
فنجان قهوة
سما للنشر والتوزيع
المجموعة الدولية للنشر والتوزيع
جميع حقوق الطبع للناشر
ISBN 977-6451-89-6
9789776451896
Bibliotheca Alexandrina
12411233